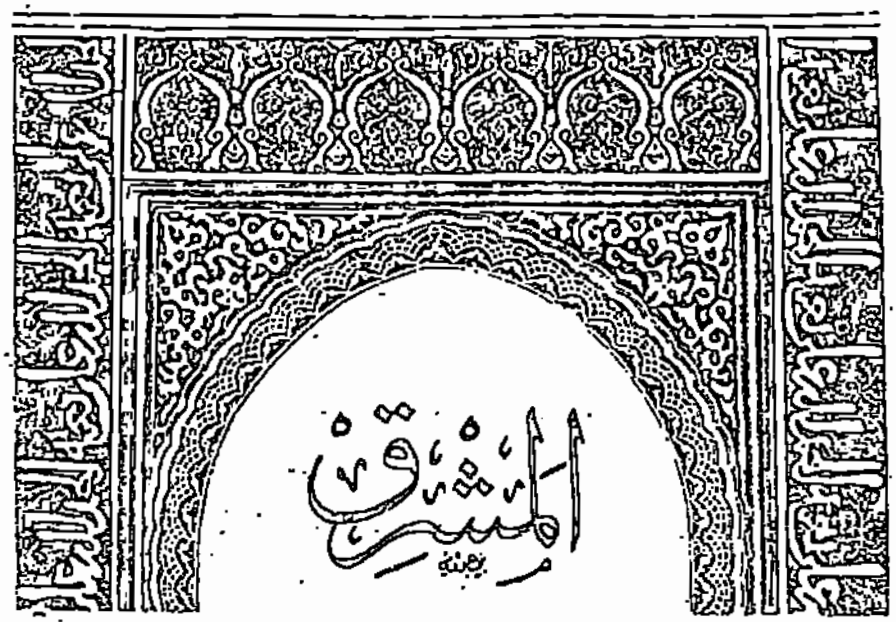

السنة الثالثة والثلاثون — تشرين ١ — كانون ١ ١٩٣٥

في الطقس الماروني

بقلم الخوري ميخائيل الرجي

تمهيد

قد نقرأ في مؤلفات البعض من اهل الغرب انّ الموارنة لا طقس لهم خاصًّا بهم . فهم انما يجرون ، في اقامة فروض العبادة الالهية ، على غوائد الكنيسة الرومانية . وقد بدأوا بتقليدها في زمن الحروب الصليبية ، من عهد البابا زخيا الثالث . ثم تأصلت عندهم ، بعد تأسيس المدرسة المارونية في رومية ، في آخر القرن السادس عشر . وها هي كتبهم حافلة بما يدلّ على نسبتها الى الطقس اللاتيني .

ومن المؤلفين ، غربيّين وشرقيين ، من لا يذهبون الى هذا الحدّ الاقصى . فيعترفون بان بعض الرتب اللاتينية قد تسرّبت الى الكنيسة المارونية . غير ان هذه الكنيسة لا تزال ، في مجمل طقوسها ، شرقية سريانيّة . فان هي الا

فرع من فروع الكنيسة الانطاكية السريانية ، يؤلف اتباعها ، مع اليعاقبة والملكيين ، من يسمونهم السريان المغاربة ، بالمقابلة مع السريان المشارقة اي النساطرة ومن اليهم من الملابار . ولهذا ، فان اختلفت في المعتقد مع جيرانها ، فهي تتفق معهم في الطقس . فللموارنة واليعاقبة ، وكذلك للملكيين الاولين ، طقسٌ واحدٌ في الاصل ، كان ولا يزال في جوهره واحداً ، وان اختلف فقط في امور عرضية باختلاف هذه الطوائف .

ولم نجد مؤلفاً واحداً ينسب الى الموارنة طقساً خاصاً بهم يمتازون به عن اليعاقبة وسائر السريان ، فضلاً عن اللاتين . على اننا قد نوفق ، بعون الله تعالى ، في هذا المقال ، الى الدلالة على أن للموارنة طقساً مارونياً ، لا يعقوبياً ولا لاتينياً . وهو يقوم بصلوات مختلفة عن صلوات الطقوس الاخرى . واهمّ من ذلك ان له سياقاً ونظاماً ، في اقامة الصلوات ، يختلف به عن سواه . ومن ثمّ كانت رتبه وخدمه وقروضه ، بادّتها اي بصلواتها ، وبصورتها اي بسياق هذه الصلوات ، قائمة بذاتها ، ذات اسلوب يميّزها عن سواها او كيان خاص بها ، مستقلةً عمّا يقابلها في بقية الطقوس المسيحية .

ولا مشاحّة في ان اشياء كثيرة وهامة قد تسرّبت الى الطقس الماروني من عوائد الكنيسة الرومانية ، خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وان اشياء كثيرة وهامة كذلك كانت قد تسرّبت اليه قبل ذلك من الطقس اليعقوبي . لكن هذه الاشياء لم تفسد جوهر الطقس ، وان تكن قد حجبته ؛ ولم تدخل فيه ، ما عدا القليل منها ، بطريقة شرعية . بل مانع الرؤساء في بعضها ممانعةً عنيفة ، وانكروا البعض الآخر . وجرّب البطريرك العظيم والعالم الكبير اسطفان الدويهي ان يعود بالطقس الى سلامته الاصلية . وعقبه المجمع اللبناني المقدس فالمح آباؤه الى شروط الاصلاح الطقسي ، على قدر ما لاح لهم منها ، وكان بامكانهم تقرير اجرائها .

وسبيلنا في الوصول الى غايتنا ، بعد تبيان ما دخل الطقس من عناصر اجنبية ، شرقية وغربية ، يعقوبية ولاتينية ، ان نبعث المخطوطات القديمة من مدافنها ، وننفخ فيها روحاً جديدة : نسألها فتجيبنا ، نصغي اليها فنسمع صدى

اصوات اجدادنا ومعلّمينا المودعة فيها ، نحدق اليها تارةً ونشخص اخرى فتظهر لنا حقيقة امرها مجرّدة واضحة .

العهد اليعقوبي

بدون عناء ، يدرك الباحث أنّ من المخطوطات التي سلمت من ايدي الحدثان فصانتها لنا خزائن الكتب الخاصة والعامة ، شرقاً وغرباً ، ما لا ريب في صحة نسبته الى الموارنة . ومخطوطات اخرى ، ان جاز الشك في نسبتها اليهم ، فلا نكير في انها كتبت في بلادهم ووُجدت في ادیرتهم ، وقد يكون استخدامها قد جرى في كنائسهم .

على ان ما يجب الالتفات اليه أنّ هذه المخطوطات ، على علّاتها ، قلّما ترجع بعهدها الى ما قبل القرن السادس عشر . وهي تكثر شيئاً فشيئاً ، كلما اقتربت من القرون اللاحقة . والقليل القليل منها يعود الى القرن الخامس عشر . اما ما كان منها من الرابع عشر ، فقد لا يتجاوز اصابع اليدين عدّاً . وهيهات ما هو منها قبل هذا القرن .

وبدون عناء ، يعرف المطّلعون ان القرن الخامس عشر كاد يكون في لبنان ، وعلى الاخص في شماليه ، في جبة بشرّاي ، مطبوعاً بطابع اليعقوبية . فالقليل الذي ذكره مؤرخو الموارنة ، عن امامهم الدويهي ، في هذا الصدد ، يدلّنا على انتشار اليعقوبية انتشاراً واسعاً في هذه الناحية المارونية ، وعلى شدّة تأثيرها حتى انخدع بعض الموارنة هناك بها .

كان حكّام الجبة في هذا القرن ، وفي القسم الاول من القرن التالي ، المقدّمون يعقوب بن ايوب وسليله . وبعنايتهم وفضلهم ، « استتبّت الراحة ، وكثر العمران ، وأُنشئت الكنائس والمدارس ... ومَن كانوا من النساخ في ذلك العصر ... ينيفون على مئة وعشرة نساخ »[1] . ولهذه الاسباب امّ لبنان كثيرون من البلاد البعيدة للسكنى فيه . وكان في جملتهم عدد من اليعاقبة .

---

١) عن الدويهي في الدبس : الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل ، بيروت ، سنة ١٩٠٥ ، ص ٣٤٧ .

جاؤوا من عين حليا ، ومن صدد الشرق ، ومن نابلس ، ومن القدس ، حتى من الحبشة[1] . وكان منهم بدون شك رهبان علماء ، وتجار اغنياء ، فأخذوا رويدًا رويدًا يسيطرون في محيطهم ، وهو على الارجح دونهم علماً وثروةً ، حتى توصلوا الى اغراء المقدّم عبدالمنعم ، فناصرهم جهراً وتهدّد من يقاومهم[2] .

وكان بطاركة الموارنة ، حتى اوائل القرن الخامس عشر ، لا يزالون يقيمون في اديرة بلاد جبيل ، في يانوح او في وادي ايليج وما اليها[3] ، بالرغم من ان بعضهم ، كالبطاركة الحدثيين ، كانوا من جبة بشرّاي . فاستجذبهم عندئذٍ ما كان في الجبة من عمران وامن بواسطة المقدمين ، فانتقلوا الى دير قنوبين[4] . وقد يكون الدافع لهم كذلك ، في رأينا الضعيف ، ان يكونوا على مقربة من اليعاقبة ليكسروا شوكتهم ، ويخلّصوا البلاد والطائفة من شرّهم .

ويحملنا على هذا التقدير ما نراه من ان البطريرك بطرس الحدثي ، وهو الثالث في قنوبين ، ارسل ينهاهم عن طغيانهم ، فكان لهم من حماية مقدّم بشراي ما جرأهم على عدم الانقياد له . فاتفق البطريرك مع اهل اهدن ، وسام مطراناً منهم ولاه على دير الاحباش في اهدن . فعظم الامر على هؤلاء ، فثاروا الى حدشيت محتمين بمقدم بشرّاي وبشدياق حدشيت . فاستنجد هذان برجال الضنية على اهل اهدن . وكان ما كان من فتك الاهدنيين بهم فتكاً ذريعاً . فتكب اليعاقبة بذلك ، وهربوا من جبة بشراي ، وتشتتوا ايدي سبا . وكانت نكبتهم هذه سنة ١٤٨٨[5] .

على ان تأثير اليعقوبية كان قد تأصّل عند الموارنة ، فبلغ حدًا جعل البعض يزعمون ان الموارنة فرقة من اليعاقبة . فقام ابن القلاعي يفند زعمهم في كتابه الموسوم « مارون الطوباوي »[6] وما يدهش شديد الدهش ان البطريرك ميخائيل

١) الدبس ثمّ ، ص ٢٤٧ .
٢) الدبس ثمّ ، ص ٢٤٨ .
٣) الدبس ثمّ ، ص ٢٠٠-٢٠٧
٤) الدبس ثمّ ، ص ٢٥١
٥) الدبس ثمّ ، ص ٢٤٨-٢٤٩
٦) ذكره الدبس ثمّ ، ص ٢٤٩ و ٢١٠

الرزي (١٥٦٧-١٥٨١)، قد اضطرّه بعض الخصوم الى المدافعة عن نفسه، تجاه الكرسي الرسولي المقدس، أنه ليس يعقوبيًا، ولا من اصل يعقوبي[1]. وكان هذا، كما ترى، بعد نكبة اليعاقبة بما يقرب من قرن كامل.

واذا كان التأثير اليعقوبي قد بلغ هذا المبلغ عند الموارنة مدة قرنين، فلا غرابة ان يكون قد ترك آثارًا جمة في الطقس. فاليعاقبة، وبينهم رهبان علماء، قد عمروا الاديرة والكنائس، بل البلاد كلها، بمخطوطاتهم الطقسية وغيرها؛ ونساخهم اخذوا يخطّون الكتب لحساب الموارنة. وهؤلاء قد خلب بعضهم مظاهر العلم والفن والجاه التي كانت لضيوفهم اليعاقبة، فاهملوا كتبهم العتيقة، واخذوا باقتناء هذه الجديدة، وبالنسج على منوالها، وبالنتيجة باستعمالها. نرى ذكرًا لذلك في كتاب رحلة الاب دنديني القاصد الرسولي الى الموارنة، حيث قال في آخر الفصل الثامن عشر: «ان الكتب الفاسدة الرديئة منتشرة جدًا ما بينهم (الموارنة)، لانها ليست محرمة. ومنها مؤلفات للنساطرة واليعاقبة وتباع ديوسقوروس وغيرهم من اصحاب البدع، الذين يقيمون مسا بينهم وينشرون كتبهم بذهاء وعناية، فيحرزها هؤلاء بدون الانتباه الى ما تتضمنه من ضلال. وقد اخبرني بعضهم ان اليعاقبة ادخلوا من كتبهم الى بلاد الموارنة، من زمن ليس ببعيد، ما يقارب خمسين حمل بغل.»[2]

ولما كانت المخطوطات التي سنتناها مارونية، على ما مرّ، اما لاستعمالها في كنائس الموارنة واما لكتابتها في بلادهم وحفظها في خزائنهم، يرجع اغلبها الى هذين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، المطبوعين بطابع اليعقوبية، فلا غروَ ان يكون قد اعتورتها اشياء واشياء من طقس اليعاقبة ومعتقدهم، بحيث يتحتم على الناقد البصير الّا يركن اليها تمام الركون انها شواهد عدل على

---

(١) في الدبس ثمّ، ص ٢٩٠.

(٢) دنديني: *Missione Apostolica al Patriarca et Maroniti del Monte Libano*, Casena, 1656. وقد ترجمه ريشار سيمون الى الفرنسية. — *Voyage au mont Liban*, du R. P. Jérôme Dandini. Paris, 1675. وعرّبه الخوري يوسف يزبك العشيقي وطبعه في بيت شباب، لبنان، سنة ١٩٣٣.

معتقد الموارنة وطقوسهم ؛ بل ان يميز غثها من سمينها ، يعقوبيها من مارونيها ؛ ويمحصها حتى تنتقي مما قد خالطها ومازجها ، ولا يفتأ يعالجها حتى تنجلي الرغوة عن الصريح .

هذا ما جاهر به الموارنة المجتمعون بحضرة الاب دنديني المشار اليه . فلما كان يعترض على صحة معتقدهم ببعض اغلاط ذكرتها كتبهم ، كانوا يجيبونه منكرين نسبة هذه الكتب اليهم ، ومؤكدين انها لليعاقبة الذين كانوا ينشرونها بدهاء ومكر ما بين ابنـاء الطائفة ، وهي تختلف اختلافاً بيناً عن كتبهم[1] .

وهذا ما كان قد كتبه قبل ذلك البطريرك ميخائيل الرزي الى الكردينال كرافا سنة ١٥٧٨ : « اذا كان في بعض النسخ شيء يخالف ذلك (معتقد الكنيسة المقدسة) ، فقد ادخله الهراطقة المحدقون بنا على تلك الكتب من زمان طويل . »[2]

وكما انه لا يصح اتخاذ هذه الكتب قاعدة لايمان الموارنة ، كذلك لا يصح اعتبارها جامعة لطقوسهم ورتبهم . فبعض الكتب الطقسية ، المصدرة باسماء ائمة اليعاقبة ، مثل ساويرا ويرصوما وامثالهما ، والحافلة بالرتب المنسوبة اليهم ، ليست مارونية ، بل يعقوبيـة موسومة بطابع ائمة اليعاقبة ، وهي هي تنادي بيعقوبيتها . فلا يجوز اعتبارها مارونية ، ولو وجدت بين ايدي الموارنة[3] او طبعت لاستعمال الموارنة[4] . فوجودها نتيجة ما سبقنا فقلنا . وطبعهـا ثمرة

---

١) دنديني . في معيشتي ، ص ٨٣ .

٢) ذكره الدبس ثم ، ص ٣٩٣ .

٣) لا تخلو خزانة الكرسي البطريركي من امثال هذه الكتب ، حتى يومنا هذا . من ذلك المخطوط عدد ٩٧ المحتوي على رتبة عماد بعنوية منسوبة لساويرا . وقد خطه سنة ١٨٦٢ يونانية (١٥٥١ م .) جرجس شماس من ادنيت للقس نعمه ايطو وقفاً للدار مركيس . وقد شطب فيه اسم ساويرا وصححت بعض عباراته في المتن وعلى الهامش ، وصححت صورة العماد والتثبيت الخ قصد تقريبها من الرتبة المارونية .

٤) من ذلك كتاب القداس الذي طبع في رومية سنة ١٥٩٢–١٥٩٤ . فان مجموعة النوافير المطبوعة فيه تحتوي على بعض نوافير منسوبة الى ائمة اليعاقبة : كالبطريرك يوحنا بن

التسرّع في العمل ، والجهل باصول الطقس والعلم ، ليس الّا. وما على الموارنة في ذلك من حرج[1].

ولو اهتدى بنور هذه المبادئ من كلفوا بفحص شؤون الموارنة من القديم، وكذلك من عنوا انفسهم بتخطئة الموارنة وتسويد صفحة ايمانهم النقية ، لكانوا كفوا انفسهم والموارنة والتاريخ مؤونة ما ردّدوه واودعوه كتبهم من تهمات باطلة استقوها من هـذا الينبوع المسموم او الملوّث ، اعني ينبوع المخطوطات اليعقوبية او المتأثرة باليعقوبية .

وكما يؤاخذ الاجانب عن الطائفة في صدد نسبة معتقد اليعاقبة الينا ، يؤاخذ ابناء الطائفة انفسهم ، وخاصةً العلماء منهم ، في خلطهم بين كتب الطائفتين وطقوسهما ، وفي عدم تمييز الماروني من اليعقوبي ، وفي اعتقادهم ان للطائفتين طقساً واحداً .

وقد قرأنا لبعضهم عبارات مدهشة في هذا الصدد ، لا بأس بايراد ما يتسنى لنا الوصول اليه منها . كتب العلامة جبرايل الصهيوني سنة ١٦٤٤ الى العلامة نيكوسيوس ، في معرض الكلام عن كتاب القداس والتوافير ، ان التوافير مشتركة بين الموارنة واليعاقبة : « لان الكتب الكنسية هي واحدة الموارنة واليعاقبة . »[2] وقد ذهب العلامة اسطفان عواد السمعاني ، في كتابه : « لائحة المخطوطات الشرقية في المكتبة المديشية بفلورنسة » ، الى حدّ انه وضع العنوان التالي لاحد المخطوطات : « كتاب القداس السرياني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية للسريان اليعاقبة والموارنة »[3] . والسمعاني الكبير كتب ، تعليقاً على رتبة سر الزواج المدرجة في المخطوط الفاتيكاني عدد ٢٤٢ ، هذه العبارة : « ان السريان ، الموارنة منهم واليعاقبة ، يستعملون في خدمة الاسرار طقساً

شوشان ومتى الراعي وغيرهما . وفي نافورة مار يعقوب يذكر في تذكار القديسين برصوما (ص ١٦٨) ويبيد ذكره في الختام (ص ٢٤٥)

١) انظر بيان البطريرك سركيس الرزي امام دنديني في الدبس ثمّ ، ص ٢٩٨

٢) ذكره الاب ديب في كتابه *Etudes sur la Liturgie Maronite*. Paris, 1919. ص ٤٠

٣) ذكره ديب ثمّ ، ص ٤٠

واحداً تقريباً . »[1] والى الآن ، اذا تحدثت الى اهل المعرفة والاطلاع في الطائفة بهذا الموضوع ، اجابوك فوراً : اننا الموارنة قد اختلفنا مع السريان الآخرين في المعتقد فانفصلوا عنا ، لكن الطقس ظلّ مشتركاً بيننا .

ولما كان هذا ما يعترف به الموارنة بكل هذه الصراحة ، فاحر بسواهم من السريان ان ينادوا به . قال المطران يوسف داود ، السرياني الكاثوليكي ، ما نصه : « كانت الكتب الطقسية للطائفتين (اليعاقبة والموارنة) واحدةً ولاسيما كتب توزيع الاسرار ، كما هو معلوم ولا حاجة الى بيانه »[2] وكذلك : « من غرائب ما نراه في الشيعة المارونية القديمة انها مع كونها اتخذت في طقسها جميع ما عند اليعاقبة تقريباً . . . »[3] .

قلنا كان الاحرى بعلماء الموارنة ان يأخذوا بقول ابن القلاعي ان الموارنة ليسوا فرقة من اليعقوبية ، وببيان البطريرك سركيس الرزي ان في الطائفة كتباً احضرها فاطلع عليها القاصد الرسولي ايرونيموس دنديني ، وكان قد قدمها قبلاً بيده للقاصد الاخر الذي سبقه اي يوحنا المعمدان اليانو فظهر ان الاغلاط التي اشار اليها يوحنا المعمدان لم تكن في كتب الموارنة بل في كتب اليعاقبة ، حتى تعجب الاب دنديني واقرّ انّ ما اتهم به الموارنة القصاد الرسوليون هو تجنٍّ عليهم[4] . فهم لو فعلوا لكانوا قد اهتدوا الى كتب الموارنة « التي تختلف اختلافاً بيّناً عن كتب اليعاقبة »[5] ، ولكانوا حفظوا لنا هذه الكتب النفيسة . ولا شك في ان منها كتباً طقسية تختلف كذلك عن كتب اليعاقبة في صلواتها ، وفي سياق هذه الصلوات . كالكتب النادرة التي توفقنا الى الاطلاع عليها والتي سنتكلم عنها ، ان شاء الله .

وقد ساعد الموارنة على الوقوع في هذا الخلط ما عمله بعض القدماء منهم . فانهم اذ رأوا نفر الطائفة ، بالنسبة الى اليعاقبة ، في المؤلفات الطقسية والقانونية ،

---

١) السمعاني : لائحة الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية ، رومية ١٧٥٩ ، ص ٥٢٢

٢) كتاب جامع الحجج الراهنة في إبطال دعاوي الموارنة . مصر سنة ١٩٠٨ ، ص ٦٤

٣) الكتاب نفسه ، ص ٤٠٢

٤) الدبس ثمّ ، ص ٢٩٨ ٥) في دنديني ، عشيتي ، ص ٨٢

فضلًا عن سواها ، اخـذوا عن هؤلاء بعض كتبهم كالناموس لابن البسال ، وكتاب شرح الليترجية لابن الصليبي ، ونافورات اليعاقبة ، وغير ذلـك ، وحوّروها قليلًا على موجب بعض عاداتهم وطقوسهم ، ونسبوهـا الى علمائهم الاقدمين . ولما كانت هذه الكتب تحتوي على طقس اليعاقبة ليس غير ، فقد ظن الموارنة بعدئذٍ ان للطائفتين طقساً واحدًا . ويا ليتهم اكتفوا بالقليل الذي كان لديهم من كتبهم الصحيحة التي لا شبهة عليها وقنعوا به : فالقناعة غنى .

وهذا النقر في الكتب الكنسية دفع بعض الموارنة الى المخاماة عن بعض ائمة اليعاقبة كالسروجي والرهاوي ، واجهاد النفس في تبيان كونهم ارثوذكسيين كاثوليكيين . ذلك لكي يتمكنوا من الاستمانة بمؤلفاتهم . وما كان اغناهم عن ذلك !

العهد اللاتيني

تجاه هذه الحالة ، وقد تسرب الطقس اليعقوبي الى الكنيسة المارونيـة ، فكان سبباً لاتهام الموارنة ، لدى الكرسي الرسولي المقـدس ، باتباع ضلال اليعاقبة ، كان لا بدَّ من القيام بالاصلاح الواجب .

قلنا فيما سبق ان هذه الغاية قد تكون بعض ما حدا بالبطاركة الى النزوح من وادي ايليج الى دير قنوبين في وادي قديشا . وقد رأينا البطريرك ميخائيل الوزي ، وخلفه شقيقـه البطريرك سركيس ، يتنضلان من تهمة اليعقوبيـة ، ويبيّنان الاختلاف البيّن الموجود بين كتب اليعاقبـة وكتب الموارنة ، فيقتنع بذلك الاب دنديني ، القاصد الرسولي ، فيصرح « ان الكتب المارونية الحقيقية هي كاثوليكية صرفة ، لا غبار عليها ولا يشتم منها رائحة الضلال . »[1]

ومنذ ذاك الحين اخذ البطاركة يسعون في ان يتلقى بعض الموارنة العلوم الكافية ويحصلوا المعارف الوافية ، ليقفوا معهم في وجه التيـار اليعقوبي ، ويساعـدوهم في الاصلاح المنشود . فولوا وجوههم شطر الغرب ، ورغبوا في استقاء العلوم من منهل الكنيسة الرومانية ، امّ جميع الكنائس ومعلّمتهنّ .

---

(١) مشبقي ، ص ٨٣

وقد ذكر الدويهي ان اول من فكر في ذلك البطريرك سمعان بن حسان الحدثي، فارسل الى رومية ، سنة ١٥١٥ ، كاهناً وراهبين ليتعلموا اللاتينية ويقتبسوا العلوم[١] . وسنة ١٥٤٢ ، كتب البطريرك موسى العكاري الى البابا بولس الثالث يسأله ان يوعز الى رهبان القديس فرنسيس بارسال ستة كهنة لينشئوا مدرسة بلبنان لتعليم بعض الشبان الموارنة اللغة اللاتينية[٢] . وسنة ١٥٧٧ ، زار الموارنة من قبل الكرسي الرسولي الاب يوحنا المعمدان الياتو فاطلع على امورهم وطلب من الحبر الاعظم، غريغوريوس الثالث عشر ، في جملة ما طلب، ان تُنشأ مدرسة في رومية يتأهب فيها الموارنة الى قبول الدرجات المقدسة[٣]. فتنازل قداسته الى اجابة الطلب واسس المدرسة الحبرية المارونية الشهيرة في رومية سنة ١٥٨٤[٤] . وقد اقام البطريرك يوحنا مخلوف مدرسة في دير سيدة حوقا في وادي قديشا، سنة ١٦٢٤، يتعلم فيها الشبان العلوم الاكليريكية، حتى اذا نبغ احد منهم وفاق اقرانه، ارسل الى المدرسة الرومانية[٥].

وفي الوقت نفسه ، استرعت انتباه الجميع حاجة الطائفة القصوى الى طبع الكتب ، خاليةً من النقائص والشوائب والمفاسد . فاقترح الاب الياتو السابق ذكره على قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر انشاء مطبعة سريانية وعربية لفائدة الموارنة في رومية . فتمّ الامر ، وطبعت بعض الكتب الروحية سنة ١٥٨٠ ، والطقسية كالنوبة اي كتاب الجناز سنة ١٥٨٥ ، وكتاب القداس سنة ١٥٩٤[٦]. وتوالى طبع الكتب الطقسية في مطبعة المجمع المقدس في السنين والقرون التالية على ما هو معلوم.

ومن البديهي ان الدارسين والطابعين كان ينتظرهم خطر كبير ، وكانت الظروف التي وجدوا فيها مدعاةً الى سقوطهم فيه . فعوضاً عن ان يرجعوا ، في الامور الطقسية ، الى الكتب المارونية القديمة التي اراها البطاركة آل رزي

١) في الدبس ج٣ ، ص ٢٥٩
٢) في الدبس ج٣ ، ص ٢٨٦
٣) في الدبس ج٣ ، ص ٢٩٣
٤) في الدبس ج٣ ، ص ٢٩٧
٥) في الدبس ج٣ ص ٣٥١
٦) انظر مقالتنا في المشرق . غرز - ايلول ، ١٩٣٦ ، ص ٣٥٩

لقصاد البابا ، وشهد هؤلاء باختلافهـا البيّن عن كتب اليعاقبة ، كان لهم من تاثّنهم العلوم على ايدي الغربيين ، واضطلاعهم بالطقوس الغربيـة ، وقيامهم بالعمل تحت اشراف اصحاب السلطة الرومانية ، ما جعلهم يدخلون في طقسنا عناصر كثيرة وهـامة ، وخصوصاً في خدمة الاسرار ، من الطقس اللاتيني. فهم ، اذا كانوا قـد جردوا بعض الطقوس من العناصر اليعقوبية ، فانهم قد ادخلوا فيها عناصر لاتينية مكان اليعقوبية . وقد اخطأوا بذلك خطأ جسيماً.

حاشا لنا ان نبخس الطقس الروماني حقه ، او نخفض قدره ؛ فله شرفـه وروعته وجلاله وجمالـه . فضلاً عن ان المسيحيين الذين يرعونه ، ويؤدّون واجباتهم لله تعالى على طريقته ، يبلغون مئات الملايين عدّاً . فاستدراج الموارنة الى اتباعه ، وقليل عددهم ، لا يزيده شيئاً ، كما ان استقلالهم عنه لا يضيره.

وبالعكس لو تمّ الامر الاول ، لفقدت الكنيسة الجامعة طقساً قديماً جليلاً، تمتدّ اصوله ، مثل سائر الطقوس ، الى القرون الاولى وحتى الازمنة الرسولية ؛ ولحرمت البيعة صوتاً يرتفع الى الله ، منضمّاً الى الاصوات الاخرى التي تتألف منها هذه التسبحة الكاثوليكية العديمة النظير بتعداد انغامها ، ودقة ايقاعها ، وبديع توازنها ، هذه التسبحة المنسوجة على منوال التسبحة السماوية الابدية ، التي يُنشدها امام العرش وامام الحمل « جمّ غفير من كل امة وقبيلة وشعب ولسان »[1]

وقد اعلن الكرسي الرسولي المقدس مراراً عديدة ، وبصور شتى خاصة وعامة ، حافلة وبسيطة ، اعتباره للطقوس الشرقية ، واحترامه لهـا ؛ وشدّد الاوامر بالمحافظة عليها . لكن ذلك كان بعد الزمن الذي نحن فيه.

ففي هذا الزمن وفيما سبقه من الازمنة ، كانت الافكار في رومية منصرفة الى تقييد الموارنة ، خاصة في خدمة الاسرار ، بوجوب استخدامهم من الطقس اللاتيني ما يستوفه صور الاسرار ، واقتدائهم بعادات الكنيسة الرومانية . وآثار ذلك واضحة جلية في براآت الاحبار الاعظمين : من زخيا الثالث سنة

١) رؤيا ٧ : ٩

١٢١٥[1] ، فلاون العاشر سنة ١٥١٥[2] ، الى غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٧[3] .

ونظن ان اول من قام بين الموارنة يجنح الى الطقس اللاتيني ويدعو الى اتباعه ، عملاً بنصّ البراآت الحبرية ، بل غيرةً منه تجاوزت منطوق هذه البراآت، كان جبرائيل بن القلاعي اللحفدي الذي انضم الى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٤٧١ ، وعاد الى لبنان سنة ١٤٩٤ ، وسيم كاهناً سنة ١٤٩٦ ، واقام بقبرس في رهبانيته. ثم سيم اسقفاً مارونياً على قبرس سنة ١٥٠٧ ، وتوفي هناك سنة ١٥١٦[4] .

فهذا جعل دأبه حثّ الموارنة على التمسك بالكرسي الروماني كاجدادهم . وخيّل له ان من موجبات هذا التمسك اتباع الطقس اللاتيني . ومن مؤلفاته كتاب في الناموس البيعي نجد نسخة منه بين المخطوطات العربية في المكتبة الڤاتيكانية ، عددها ٦٣٩ ، وتاريخها سنة ١٥٧٤[5]. وفي مكتبة دير الكريم مخطوط هو مجموعة قوانين، اهم اجزائه كتاب الناموس لابن العسال . ومن جملة محتوياته « شرح مختصر من ناموس البيعة عن البيع تقدمات[6] الكنيسة المقدسة » . وقد كتب هذا الجزء « يوسف بن داود قسيس من كرمسدي سنة ١٦٠٨ للمسيح في رومية » . ولا يبعد ان يكون هذا الجزء نسخة من كتاب الناموس البيعي لابن القلاعي . فهو يتكلم عن القداس ، فالعماد ، فالتثبيت ، فالمشحة ، فالرسامة[7] . ويذكر لكل من هذه الاسرار شرح رتبته اللاتينية ، ويورد له الصورة اللاتينية بالحرف.

ودونك ما يقوله في العماد . « الصورة الجوهرية . . . انا بعمدك فلاناً بسم

---

١) ديب ثمّ ، ص ٢٢١ ٢) ديب ثمّ ، ص ٢٥٧

٣) ديب ثمّ ، ٢٦٤ ٤) ديب ثمّ ، ص ٢١٠-٢١٢

٥) الاب ديب في كتابه السابق ذكره ؛ ص ١٤٢

٦) المراد بالتقدمات هنا اسرار البيعة.

٧) لم يقنّ لنا الاطلاع على الاصل المحفوظ في دير الكريم ، بل على نسخة مأخوذة عنه. وفي هذه النسخة لا ذكر للزواج ولا للتوبة . ولا ندري هل هذا النقص في الاصل نفسه.

الاب والابن والروح القدس امين . ولا يقول مثل الروم : ينبعث فلان بسم الآب والابن والباقي، ولا مثل المشارقة انا معمدك انا معمدك انا معمدك بسم الآب والابن والباقي (انا اعمد عبدًا في رعية المسيح) . ولا يزيد امين بين الكلام الجوهري ويبطل الفعل ولا يخلي امين في الاخير . ولا يقول سلام لكم لعبدك لعبدك (الحي للحياة حتى الابد) . . . وليس يفعل المكتوب (يريد الصورة المسطورة امام الكاهن في الكتب آنئذ) بل باطل يكون هو فعله». وبعد ذلك يشرح ما في رتبة العماد من نفخ، وتصليب، وملح، وريق، الخ، مما يدل جليًا على انها الرتبة اللاتينية.

وهكذا في «تقدمة الثبات في الميرون من يد رئيس الكهنة»، يشرح الرتبة اللاتينية ويورد صورتها . ومثله «عن دهن الزيت . . . قبل طلوع الروح من الجسد» يشرح رتبة اللاتين ويوزد صورة المسحة عندهم. وكذلك يطابق كلامه في الرسامة رتب الطقس اللاتيني.

ينتج من كل ذلك ان لابن القلاعي اليد الاولى والطولى في ابدال الطقوس اللاتينية من الماروتية في خدمة الاسرار . على ان دعوته، في مؤلفه هذا وفي سائر مصنفاته، الى اتباع الطقس اللاتيني، ما كانت قد لقيت اذانًا صاغية، لو لم يكن لها من جانب الكرسي الرسولي المقدس تشجيع وترويج، ولو لم يقم بين الموارنة انفسهم من يواصلها.

ان اعمال الكرسي الرسولي المقدس في هذا الصدد، نجد اساسها في البراآت الحبرية التي سبقت الاشارة اليها، وتفصيلها في القوانين التي عرضها قضاده الاب اليانو، ثم الاب دنديني، ورفاقهما على الموارنة في المجامع التي عقدها بحضرتهم البطاركة ميخائيل الرزي سنة ١٥٨٠، وشقيقه سركيس الرزي في ايلول سنة ١٥٩٦، وابن شقيقهما يوسف الرزي في تشرين الآخر سنة ١٥٩٦ نفسها[1]. فهي تحتم باتخاذ صورة العماد، والحلة، والمسحة الاخيرة، والرسامة، عن الطقس اللاتيني . وبفصل التثبيت عن العماد، وتعيين الاسقف خادمًا له

١) راجعها في الدبس تم، ص ٢٠١–٢١٠؛ وفي ذيل المجمع اللبناني؛ ترجمة المطران يوسف نجم، ص ٩–١٩

دون الكاهن . وتحرم على الكهنة تبريك زيت المرضى المحفوظ للاسقف . وترفض صور الاسرار اذا جاءت بصيغة الطلب . واشياء مماثلة لهذه .

وفي هذه الغضون طبعت التوبسة في رومية سنة ١٥٨٥ ، وفيها بعض صلوات مترجمة عن اللاتيني[1] . وكتاب القداس سنة ١٥٩٤ وفيه كلام التقديس مأخوذ عن اللاتيني . وفي المجمع الموما اليه ، الحّ الاب دنديني على البطريرك يوسف الرزي ان يسقّف برجس عميرة ، تلميذ رومية ، ويكل اليه تأليف كتب نافعة ، منها كتاب الرتب لتوزيع الاسرار . وكانت حجة الاب دنديني ان عميرة تد عني بطبع كتاب القداس في رومية ، وان له من علمه وفضيلته ، وكذلك من شديد تمسكه بالكرسي الروماني ، ومن اخلاصه الخدمة له ، ما يؤهله لان ينظم ، بواسطة هذا الكتاب وغيره ، عبادة الله في هذه البلدان « على موجب الطقس الحقيقي والكاثوليكي » . وقد أيد عميره استعداده هذا ، اذ اظهر رغبته الصريحة في قبول الدرجات المقدسة على يد المطران موسى العنيسي ، تلميذ رومية ، بحسب عادة كتاب الحبريات الرومباني[2] . فسقّفه البطريرك على اهدن ، بالرغم من الصعوبات التي اعترضته ، وعهد اليه بتأليف او ترتيب الكتب .

وقد عدنا الى الآثار المارونية المعروفة نفتش عمّا عمله عميره ، ان في ايام اسقفيته وان في ايام بطريركيته ، في جانب الطقوس ، فلم نجد شيئاً ، اللهمّ الا انه ساعد المطران سركيس الرزي في طبع كتاب المزامير بالسريانية في قزحيا سنة ١٦١٠[3] .

وما لم يعمله عميره ، اتمه غيره من تلاميذ رومية ، اقتداء بابن القلاعي . نذكر منهم طابعي الكتب في رومية كالخوري يوحنا بن ايوب الحصروني طابع التوبسة ، والمطران اسحق الشدراوي ، والقس عبدالمسيح الطويل الحدثي طابعي الشحيمة المتوسطة المعروفة باليوسفية سنة ١٦٤٧ . وفي آخرها ملحق يحتوي على

١) انظر درسنا على كتاب الجناز ، في كراس مطبوع في بيروت ، سنة ١٩٢٦

٢) دنديني ، في عمشيتي ، ثم ، ص ١٠٣ و١٠٤ و١٢٠ . بعد مقابلته بالاصل .

٣) انظر مقالنا في هذا الكتاب في المشرق (٣٢ [١٩٣٤] ٢٢٦-٢٦٢)

بعض رتب لتوزيع الاسرار ، وعلى بعض تبريكات وتكريسات ، وهو مترجم كله عن اللاتيني . ونخص بالذكر الاب اليسوعي الماروني الاصل بطرس مبارك، جامع كتاب الرتب الكهنوتية ، الذي طبع بعد موته سنة ١٧٥٢ ، مشتملاً على خدمة الاسرار الالهية واشباهها مترجمة بالحرف عن اللاتينية . بحيث يصح ان نعتبر عمله محاولة واسعة وكاملة لادخال رتب الطقس اللاتيني في خدم توزيع الاسرار وما اليها ، عند الموارنة .

ومع هذه الآثار المطبوعة ، لا بأس بذكر بعض الرتب اللاتينية المترجمة الى السريانية والمودعة في مخطوطات ترجع بتاريخها الى هذا العهد . من ذلك المخطوط الڤاتيكاني السرياني عدد٢٣٠ ، الذي خطّ احد اجزائه ، سنة ١٥٩٥، ملكيزادق من حصن كيفا من بين النهرين ، والجزء الآخر يوسف الباني سنة ١٥٨٦ . فانه يحتوي ، بين هذين الجزئين ، على جزء آخر هو رتبة التثبيت اللاتينية منقولة الى السريانية[1] .

وكذلك المخطوط السرياني الڤاتيكاني عدد ٣٠٠ ، الذي كتبه في قزحيا الراهب سركيس ، سنة ١٦٠١ . فانه يحفظ للاسقف ، دون الكاهن ، حق ايلاء التثبيت[2] . ويورد بالسريانية رتبة العماد اللاتينية[3] .

وفي الخزانة البطريركية مخطوط سرياني تاريخه سنة١٦٠٦ ، كتبه المطران بطرس بن سابا العاقوري . في اوله رتبة تبريك ماء العماد يتبعها بدء رتبة العماد وكمالها مفقودة . وبعده صورة الحلّ من الخطايا ، وصورة مسحة المرضى بعد رتبة القنديل . وفي آخر ورقة منه ارشاد الى كيفية تبريك زواج الارامل. فكل هذا مأخوذ بالحرف من الرتب اللاتينية المماثلة ومنقول الى العربية.

وفي الخزانة نفسها مخطوط آخر عدده ٩٥، كتب في قنوبين سنة ١٦٥٤، برسم المطران يوسف (الحصاراتي) بدير سيدة حوقا . فانه يشتمل على الخدم الجبرية من تثبيت وتكريسات وتبريكات مأخوذة بالحرف عن اللاتيني ، وعلى

١) السماني. لائحة المخطوطات السريانية الڤاتيكانية . مجلد ٢ ، ص ٥١٥

٢) ذكره الاب ديب ثمّ ، ص١٢٢ ، في الحاشية ٣

٣) ديب ثمّ ، ص١٠٨ ، في الحاشية ٢

رسامة المرتل والقارئ وما بعده حتى الخوري ، وهي الشرطونية المارونية ادخلت عليها الصورة والمادة من الرتبة اللاتينية.

وعند حضرة البردیوط یوسف الرامي ، من فالوغا ، مخطوط تاریخه سنة ١٦٥٠ ، یحتوي على مجموعة فتاوى قانونية ولاهوتية ، كان للمطران یعقوب الرامي . ففي آخره صورة الحلّ من الخطایا ، وصورة الحلّ عند ساعة الموت ، وكلتاهما لاتینیة محضة.

على ان ادخال هذه الطقوس والعادات اللاتینیة عند الموارنة لم یتمّ بدون مقاومة من جانبهم . ولنا دلیل على هذه المقاومة ان الكرسي الرسولي المقدّس ظلّ مدى قرون طویلة ، من زخیا الثالث الى لاون العاشر ، الى غریغوریوس الثالث عشر ، وحتى المجمع اللبناني في عهد مبارك الرابع عشر ، یعمل في سبیل اقرار الامور نفسها . مما یخوّلنا حتى القول أنّ هذه الامور لم یكن من السهل ادخالها في عادات الطائفة .

وبواقع الحال نرى البطریرك میخائیل الرزّي یكتب ، فیما كتبه دفاعاً عن نفسه : « ان غیرت عادة من عادات الكرسي الانطاكي فاكون مؤاخذاً امام الله والكرسي الرسولي »[1] . ولیس ما یمنع ان نرى في هذا التصریح اشارة الى ما نحن في صدده من الامور الطقسیة.

وهذا خلفه وشقیقه سركیس یتولاه الغیظ الشدید ، بحضرة الاب دندیني ، اذ یعرف بما نسبه البعض الى معتقدنا وطقسنا ، ویرفض زمناً طویلاً عقد مجمع كان الاب دندیني یشوقه الیه ، خوفاً من تجدید مثل هذه التهم ؛ ولا یقبل اخیراً بعقده الا نزولاً عند الحاح الاب دندیني ، وبعد حصوله منه على التأمینات اللازمة[2] . وبالرغم من ذلك ، نرى الاب دندیني قلیل الثقة بتنفیذ القوانین التي حتم بها المجمع ، وذلك بسبب التعصبات التي كان البطریرك قد اظهرها ، وبسبب ما تحققه من ان الموارنة عامةً لا ینظرون الى هذه القوانین كقواعد

---

١) في الدبس ثمّ ، ص ٢٦١

٢) دندیني في عمشیتي ثمّ ، ص ٢٨ و٧٧ . والدبس ثمّ ، ص ٢٦٨

للايمان والعمل ، ومن ان البطريرك نفسه كان يصعب عليه امر تنفيذها[1].

ولما توفي هذا البطريرك وقام مكانه ابن شقيقه يوسف الوزي ، نرى هذا الاخير ، بعد ان أقرّ قوانين المجمع السابق وزاد عليها ، يستدرك قائلاً : « ليس الباعث على تجديد هذه القوانين كونها لم تكن مرعية عندنا فيما سلف »[2] . وهذا البطريرك نفسه لاقى معارضة في سبيل استجابة الاب دنديني الى تستيف عميره فسبيه ، على ظننا الضعيف ، فيما أوخذ به طابعو كتاب القداس في رومية ، وعميره منهم ، من وضع كلام التقديس اللاتيني فيه مكان الماروني ؛ وفيما كانوا يخشونه من ميول عميره الرومانية ، فيما لو وُكل اليه اعداد الكتب الطقسية ، على ما نرأيت .

ونسمع صدًى عنيفاً لهذه المعارضة في حاشية كشونية خطّها بيده يوسف الباني سنة ١٦٦٥ على مخطوط تاريخه سنة ١٥٠٦ ، اهداه الى مرهج بن نيرون ، وهو محفوظ الآن في المكتبة الفاتيكانية تحت عدد ٤٨ . وهاك هذه الحاشية بنصّها وفصّها كما نقرأها في لائحة المخطوطات السريانية للسمعاني : « فلما كان تاريخ سنة ١٦٦٥ مسيحية ، وصل الى رومية يوسف الباني العياوي ، وجاب معه كتابين الشرطونية السريانية القديمة ، مع باقية الرتبة القديمة الذي ليس حدث فيها لا زيادة ولا نقصان من معلمين بني مارون الذين اختاروا لهم الذكا والمعرفة ازكى من ابهاتنا القدما . مار افرام السرياني ، ومار يعقوب الرهاوي ، ومار اسحق ومار مارون وسائر ابهاتنا الشرقيين . فغيروا العماد القديم السرياني وتمسكوا في عماد الافرنج وفي رسامة الافرنج . وزادوا على الشرطونية القديمة صورة الافرنجية ، مفسّرة منهم باللغة العربية ، لكونهم ما عرفوا يفسروها باللغة السريانية . فلكن اذا كان شرطونيتنا القديمة ليس يحل فيها رسامة فما احد اذًا قبل درجة الكهنوت ، ووضع اليد صار باطلًا » الخ . . .[3]

---

١) دنديني في عشيتي ثمّ ، ص ٩٢

٢) عشيتي ثمّ ، ص ١١٧ . وذيل المجمع اللبناني ، ص ١٩

٣) لائحة السمعاني ، مجلد ٢ ، ص ٢١٠

عمل الدويهي في سبيل الاصلاح

وفي هذه الاثناء، انعم الله على الطائفة برجل خصّه الخالق بمواهب سامية، وحبته النعمة فضائل راسخة، وقادته العنـاية الالهية الى ورد المعارف والعلوم من المدرسة المارونية برومية، فصدر عنها ريّان، وعاد الى موطنه فكرّس شخصه وذاته، علمه وعمله، قوله وفعله، لسانه وقلمه، ويوجيز العبارة كل كيانه، ما هو ومـا له، للطائفة العزيزة: ذلك الرجل هو البطريرك العظيم اسطفان الدويهي (١٦٧٠ — ١٧٠٤)[1].

وكان من جلّ الامور التي انصرف اليها، تنظيم الكتب الطقسية. ولما كان له من اشغاله ومشاغله العديدة، وهو رئيس الطائفة، ومن محنه الشديدة في تلك الاحقاب العصيبة، مـا لا يمكنه من القيام وحده بهذا العمل الشاق، الذي يقتضي مدّى طويلة، واشخاصاً كثيرين، فقد انتدب لمساعدته وللعمل تحت تدويبه المطران بطرس مخلوف، والمطران يوسف شمعون الحصروني[2]. تزيد عليهما المطران يعقوب عواد الحصروني[3]. وقد يكون منهم المطران يوسف مبارك[4]. وما عدا ذلك، فقد حثّ هذا الاب المغبوط كثيرين على النسج على منواله. فنشط جبرائيل حوّا الحلبي، بعد ذهابه الى رومية، على طبع الكتب اللازمة للطائفة؛ وحمل بعض الكهنة والاساقفة على استخراج قصص القديسين من السريانية الى العربية؛ والتمس من الكرسي المقدس طبع كتابي الاناجيل والرسائل في السريانية والعربية لاستخدام الكنائس، فطبعا في ايامه سنة ١٧٠٣؛ ووجه الى رومية ابرهيم النزيري، وميخائيل المطوشي، ليسعيا في تجهيز مطبعة لكتبنا الطقسية[5]. مما يدلّ على انه كان شديد العناية باصلاح الطقس، يوليه

---

١) نعتمد خاصة، في ما نستقيه من المعلومات هنا، على كتاب المثلث الرحمة المطران بطرس شبلي: « ترجمة ايينا المغبوط اسطفانوس بطرس الدويهي بطريرك انطاكية ». بيروت ١٩١٣

٢) شبلي ثمّ، ص ٢٠٠، والاب ديب ثمّ، ص ٩٠

٣) شبلي ثمّ، ص ١٥٨، والحاشية في ص ١٥٧

٤) شبلي ثمّ، ص ١٥٦

٥) شبلي ثمّ، ص ٢١٧

قسطاً كبيراً من اوقاته واهتمامه.

وقد استعدّ الدويهي لهذا العمل منذ سني الدراسة في رومية. ذكر عنه البطريرك سمعان عواد، انه في ذلك الحين «ما كان يجد نصاً عن الموارنة الا وينسخه، وانه ما كان يهدس الا بفحص عوائد كنيستنا القديمة». وقال في محلّ آخر انه، بعد ارتقائه السدة البطريركية، «اخذ يطوف في كل رعيته... ونقى كتبنا... وردّ كل عوائدنا القديمة ورتبها احسن ترتيب. وكان ارسلها سابقاً الى رومية لتطبع... ودرس كتب البيعة درساً بليغاً»[1]. ولا شك في ان اقامته في حلب، مدة ست سنوات قبل تسقيفه، مكنته من الوصول الى معرفة طقوس الطوائف الشرقية منشقة ومتحدة، فضلاً عن حالة طقسنا الماروني في تلك المدينة...

اما الكتب الطقسية التي جمعها الدويهي ورتبها، فقد جاء ذكرها في رسالة انفذها هو نفسه في اول ايار سنة ١٧٠١، الى الاب بطرس مبارك، اجابةً لطلبه منه ان يلخص له ترجمة حياته[2]، وهي كتاب الشرطونية اي رسامات الكهنوت ونسخته الاصلية موجودة في الكرسي البطريركي، ومنه نسخ عديدة في اماكن مختلفة؛ — كتاب هعهذا وبمتبل: قص شعر الرهبان او تكريسهم، ولم نعرف مَن ذكره بين المؤلفين؛ — تكريس الكنائس وآنيتها: ومنه نسخة في الڤاتيكانية من عهد الدويهي، عددها ٣١٠[3]، وعلى جلدها لائحة محتوياتها بخط يده؛ ومنه نسخة في بكركي في الكنيسة؛ — كتاب الصلوات: ولا نظنه الشحيمة، كما ظنه البطريرك يوسف مسعد، ومال المطران شبلي الى موافقته عليه، بل كتاب التبريكات والصلوات التي يقوم بها الكاهن، اذ ان الكتاب السابق يحوي التكريسات المحفوظة للحبر؛ وهذه الصلوات تؤلف جزءاً من المخطوط الڤاتيكاني عدد

١) في شبلي ثمّ، ص ١٩٨. وفي الدبس ثمّ، ٣٦٥ – ٣٦٦ و٣٦٢

٢) ذكرها الدبس بحرفيتها، ثمّ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤، واستند اليها شبلي في تعداد مؤلفات الدويهي، ثمّ، ص ١٦٦ – ٢٠٧

٣) الاب ديب ثمّ، ص ٩٣

٣١٢ الذي خُطّ في رومية سنة ١٧١٥ [١] ؛ ولم نعثر على نسخة أخرى منها ، بالرغم من تفتيشنا الحثيث ؛ — كتاب نافورات القداس : ونسخه كثيرة ، منها واحدة من عهده في خزانة الكرسي البطريركي ؛ — كتاب اسرار البيعة : وقد ارتأى البطريرك بولس مسعد ، ووافقه المطران شبلي ، انه كتاب بخدمة الاسرار الالهية . ولا شك عندنا في ذلك . وزاد المطران شبلي قائلًا : « وهذا الكتاب لم نعثر على نسخة كاملة له » . وقد نسب الاب ديب الى الدويهي الرتب المسطورة في المخطوط الثاتيكاني عدد ٣١٢ السابق ذكره ، ببعض تحفظ . ومن المؤكد ان رتبة العماد التي نشرها العلامة يوسف لويس السمعاني ، في مجموعته الطقسية ، في الحاشية ، منسوبةً الى الدويهي [٢] ، وكذلك رتبة العماد التي نجدها في المخطوط البطريركي عدد ١٩٦ ، الذي كتبه المطران يعقوب عواد الحصروني في قنوبين سنة ١٧٠٠ ، تحت نظر الدويهي ، تصح نسبتها اليه ؛ — كتاب المدعذان : وهو يحتوي على الرتب التي تقام في الاعياد ، اي المواسم السنوية ، كتبريك الماء في الغطاس ورتبة الشمانين وما اشبه . وكان محفوظاً نسخةً واحدةً في الكرسي البطريركي ، منقولًا اليه من دير مار شليطا مقبس ؛ — كتاب الجناز : وكان قد شرع في تنقيحه فلم ينجزه .

وقد ذكر كل هذه الكتب المطران يوسف مبارك باختصار في آخر كتاب الشرطونية الذي خطه بيده ، قائلًا : « وتعب خصوصاً على كتاب الرسامات ، والتكريسات ، والتبريكات ، والصلوات ، وسائر الرتب التي تصير في طول السنة » [٣] .

ولم يكتفِ الدويهي بجمع الرتب ، بل ألف شروحاً وافية ضافية ، في معظمها واهمها ، ضمنها ثلاثة كتب : الاول في القداس الالهي ، والثاني في التكريسات ، اي الخدم الجبرية ، والثالث في الشرطونية ، اي الرسامة .

---

١) الاب ديب ثمّ ، ص ٩٣

٢) *Codex Liturgicus Ecclesiæ Universæ*, liv. II p. 310 sqq. et liv. III p. 184 sqq.

٣) في شبلي ثمّ ، ص ٢٢٠

وقد اودع هذه الكتب تفاسير الرتب ، وايضاح الرموز . وقرن الاعتبارات الروحية التقوية بالابحاث العلمية من لاهوت ، وقانون ، وتاريخ ، وطقس . وقابل بين طقوس العتيقة والجديدة ، وبين عادات الكنائس في الغرب والشرق . فجاءت هذه التآليف آية في بابها ، وخصوصاً فيما يتعلق بالقداس الالهي[1] .

ومن شاء ان يتلمس خطة الدويهي في عمله ، عليه ان يفتش عنها في حواشي هذه الشروح ، فلا يصعب عليه العثور عليها ، وخاصة اذا قرن ما يجده فيها بما يعرفه من سائر اعماله في كتبه ومجموعاته الاخرى .

قلنا فيما سبق ان القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانا مطبوعين ، في لبنان الشمالي اقله ، بطابع اليعقوبية ، وان تلامذة المدرسة المارونية برومية كانوا قد بدأوا ، منذ اواخر القرن السادس عشر ، يقاومون هذا التيار ، مستنجدين بالطقس اللاتيني ، يترجمون بعض رتبه الى السريانية او العربية ، كما رأيت من كلام الباني ، وكما صرح الدويهي نفسه في شرحه على تكريس الميرون ، حيث قال : « ان العادة القديمة ما زالت دارجة ، حتى قام تلاميذ المدرسة الرومانية . ولكن هؤلاء استصعبوا الرتبة السريانية ونقلوا تكريسة الميرون من اللغة اللاتينية الى العربية ليستعملها الرؤساء . »[2]

فما يكون موقف الدويهي ، يا ترى ؟ افلا يجري على آثار من سلفوه من تلاميذ المدرسة الرومانية ، وهو نابغتهم ؟ واذا عاد الى ما قبل عهد هذه المدرسة ، أيمكنه النجاة من شرك المخطوطات اليعقوبية التي كانت قد غمرت الطائفة ، وخاصة في جبة بشراي ، وهو ابن الجبة البار ؟

ان فضل الدويهي الاكبر ، وسبب مجده الاعلى ، انه فطن للامرين ويتحذر من الخطرين ، وإن بتفاوت ظاهر . فلما قام ليشيد بناءه ، حاد عن ضخامة الاسس اليعقوبية ، اقله الحديثة ، واعرض عن زخرف البنايات الرومانية . فوضع

---

١) شبلي ثمّ ، ص ٢٠٤ – ٢٠٧ . وقد نشر الاستاذ رشيد الشرتوني هذه التآليف في المطبعة الكاثوليكية ببيروت : مناثر الاقداس سنة ١٨٩٥ – ١٨٩٦ ، وشرح التكريسات والشرطونية معاً سنة ١٩٠٢ .

٢) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٥٢

الاساس على صخور مارونية ، متينة ، لا شبهة فيها . فما هو يتجاوز المصادر المارونية التي خُطّت فيما سميناه العهد اللاتيني واليعقوبي ، ويرجع الى ما قبل .

وقد صرّح بذلك في مقدمة كلامه على شرح التكريسات حيث قال : « هذه الرتب التي تتصرف بها رؤساء الكهنة ، اجتهدنا على جمعها وتحريرها . . . على موجب النسخات القديمة [التي خطت] منذ ثلاثماية سنة وازيد »[1] . وكذلك في مقدمة كلامه على شرح الشرطونية ، يعتمد قبل كل شيء ، على نسخة البطريرك ارميا العمشيتي (١٢٠٩ – ١٢٣٩) ، وعلى نسخة أخرى كتبها مرقس لمناوس ، اسقف عرقا وعكار سنة ١٣١١ ، وعلى نسخة كتبت في العاقورة سنة ١٢٩٦ ، وعلى غيرها[2] . وقد ذكر في مناثر الاقداس ، عند كلامه في صورة التقديس ، بعض المخطوطات التي استند اليها . فاذا منها كتاب النواقير الذي خطه حوشب بن اسطفان بن مسعود بن الخوري اسطفان بن الخوري شمعون من شموت[3] سنة ١٣٢٩[4] .

وقد كتب الدويهي نفسه ، سنة ١٦٧٤ ، الى مرهج بن نيرون الباني ، ان هذه الكتب القديمة لا تزال موجودة في جبل لبنان ، باقية بعينها ، كاملة « بلا مكر »[5] . ولا شك في انه يعني بها هذه المخطوطات التي تعود الى القرن الرابع عشر فما قبل . وكان الاب دنديني قد اشار الى ذلك ، كما تقدمنا فقلنا . ومن هذه الكتب ما لا يزال موجودًا ، لحسن الحظ ، حتى يومنا ، وان كان قليلًا ، على ان قيمته تزداد بنسبة قلّته وندورته .

فاستنادًا الى هذه الآثار المارونية القديمة ، قام الدويهي ينقي كتبنا الطقسية من العناصر اللاتينية واليعقوبية التي خالطتها .

---

١) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٣

٢) شرح الشرطونية (طبعة الشرتوني) ص ٨٦

٣) هكذا في النسخة المطبوعة . أما المكتوبة بخط يد المؤلف والمحفوظة في خزانة سيادة المطران عبدالله خوري ، النائب البطريركي العام ، فاسم البلدة فيها شتا .

٤) مناثر الاقداس (طبعة الشرتوني) الجزء الثاني ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

٥) نقلًا عن مرهج نيرون . ثمّ ، ص ٢٠٤

وكان موقفه من مقررات السلطة الرومانية في جانب الاصلاح الطقسي موقفاً شريفاً . فهذا العلامة وقف حياته على الدفاع عن بني قومه وملّته ، ووضع في ذلك كتباً كثيرة ، جاء فيها على دحض الافتراآت والتهم التي وجهها الى الموارنة عن قصد او عن جهل بعض الكتبة . ومن جملة الامور التي اقرّها ان ما كان يرعاه الموارنة في طقوسهم مما لا يتفق مع عوائد الغربيين ، ليس مما يمكن شجبه او نبذه . واتى بالبراهين والحجج الدامغة على ان ذلك من مخلفات الكنيسة الاولى . واثبت انه شرع وحق وصواب . وكان يقصد بذلك كثيرين من كتاب الغرب ، ومنهم بعض قصاد الكرسي الرسولي المقدس .

على انه قد احترم غاية الاحترام ارشادات الاحبار الاعظمين ، واطاع اوامرهم ، في صدد الاصلاح الطقسي ، فعدّل بموجبها اموراً رأوها خللاً وشواذّ ، وهي ليست بالخلل ولا بالشواذ الا بالنسبة الى الطقس اللاتيني ، والطقس اللاتيني لم يكن قط قاعدة للكنيسة الكاثوليكية في طقوسها المختلفة العديدة . وقد قرأنا له في ذلك عبارة تدل على مبلغ انصياعه لرغبات رومية ، نوردها دلالة على شرف عواطفه ، وقد قالها في معرض كلامه عن وجوب تكريس الميرون من الزيت والبلسم دون غيرهما ، وهي : « طوعاً لصاحب السلطان الاعلى . »[1]

فعملاً بهذا المبدأ السامي ، قبل الدويهي بجمل ما طلبه الاحبار الاعظمون في براآتهم ، وبعض ما قرره الموارنة في مجامعهم المتأخرة ، ووضعه موضع العمل في ترتيب الكتب الطقسية . ولو جئنا نعدّده ونبيّنه هنا ، لطال بنا المجال . فيكفينا القول انه نبذ كلما كان رتبةً لاتينيةً كاملةً . وعدل تعديلاً طفيفاً بعض رتبنا ، تطبيقاً لها على مقررات السلطة الرومانية . ولا ندري لماذا احتُفظ في العمل المنسوب اليه ببعض صلوات مترجمة من اللاتينية ، مثل احدى صلوات رتبة الاكليل ، وغيرها . فادماج هذه في الطقس ليس من باب ما قاله ونقلناه عنه : « طوعاً لصاحب السلطان الاعلى . »[2]

---

١) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٥٢ .

٢) نريد هنا رتبة الاكليل المدرجة في المخطوط الفاتيكاني عدد ٣١٢ . ولما كان تاريخه سنة ١٧٩٥ ، اي بعد وفاة الدويهي بزمان ، فقد تكون هذه الرتبة مزيداً فيها . وعليه

وقد ابقى الدويهي كذلك في الكتب التي نظّمها آثاراً عديدة ، بل رتباً كاملةً ، من الطقس اليعقوبي . فهل ادرى ذلك يا ترى بسبب اندماج هذه العناصر اليعقوبية في طقسنا ، ورسوخها في عوائدنا ، بحيث اصبحت يصعب تمييزها من العناصر المارونية ، وخاصة عند عدم الوصول الى الرتب المارونية الاصلية المماثلة لها ؟ قلنا ان فكرة استقلال الطقس الماروني عن اليعقوبي استقلالاً تاماً ، على نحو ما نبسطه هنا ، هي فكرة جديدة . فقبل الدويهي وبعده ، كان العلماء الموارنة وغيرهم ، على ما بيّنا سابقاً ، يعتقدون ان للموارنة والسريان طقساً واحداً وكتباً واحدة . ولا غرو ان الدويهي كان من هذا الرأي . وبه الكفاية في سبب ابقائه في طقسنا على كثير من الطقس اليعقوبي ، حال كونه قد قضى تقريباً على ما كان فيه من الطقس اللاتيني . على اننا نظن ، بالرغم من ذلك ، ان الدويهي ، اذا كان لم يرَ جلياً الفرق التام بين طقس الموارنة القدماء وطقوس جيرانهم من سائر السريان ، فهو قد تبيّنه بدون شك . وقد لا تخلو مؤلفاته من ادلّة على ذلك ، لا مجال لسردها هنا .

اما الروح التي استرشد بها الدويهي في عمله ، فقد عبّر عنها في مقدمة كلامه على شرح التكريسات بهذه الكلمة : « لئلا نحيد بشيء عمّا تسلّم ، من الرسل ابواق الروح القدس ، آباؤنا ومعلمونا ، الذين سلفوا قبلنا بكل طهارة وحكمة على هذا الكرمي الانطاكي المعظم »[1] . ونعمّا هذه الروح !

على اننا يظهر لنا ان احترامه العميق للسلف الطاهر الحكيم قد تفوّق لديه على ما قد يقتضيه احياناً النقد المجرد . فقد قبل كل ما خاله تراثاً عنهم فجمعه على علاته ، بدون ان يعالجه مقابلة ومعارضة ، وتشذيباً وتصحيحاً . فضمّ الى واحد كل ما وجده مبعثراً ، بدون ما نظر اليه من حيث التلاحم والملاءمة . فلم يخلُ عمله ، او اقله العمل المنسوب اليه ، كما في خدم الاسرار ، من الجمع بين طقوس مختلفة في الرتبة الواحدة ، او من ايراد رتبتين مختلفتي الطقس

لا يمكن البتّ في هذا الامر الا بعد الاطلاع على نسخة الدويهي الاصلية . وهذا ما نجد البحث عنه .

١) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٢

لخدمة السر الواحد[1] ، او اختصار بعض صلوات هي من كيان الرتبة[2] ، او تغيير موضوع صلوات اخرى[3] .

لكنه لم يحجم عند الضرورة عن التملص من هذا القيد . ويلذ لنا ان نسمع ما قاله في صدد رتبة تكريس الميرون ، التي اضطرّ الى نظمها في سلك جديد . فلما رأى ان قبول الرتبة القديمة على علاتها اصبح غير ممكن ، « وان كان ما يمكن اننا نذمّها »[4] ، وكان لا يوافق تلاميذ رومية على ابدالهم الرتبة اللاتينية منها ، كما رأيت ، صرّح بما يلي : « فالتزمنا نقف عليها (الرتبة) ونقطف الذي هو ضروري لتكريس الميرون ، ولتحسين الرتبة على زيّ البلاد . والباقي تركناه ، كما يرى القارئ الذي يتأمل النسختين ، ان لا صار تغيير في التكريس ولا في الرتبة »[5] . قلنا هذا القول خطةً عامةً . على اننا لا يمكننا التأكيد ان الدويهي قد عمل كل العمل بهذه الخطة ، حتى في رتبة تكريس الميرون ، او اتبعها في تنظيم سائر الرتب . فهذا يقتضي له الالمام بعمله كله مجملًا ومفصلًا . ولكن يمكن القول ان هذه الخطة كانت نصب عينيه . جاء في مقال للاب ابراهيم حرفوش ابن الدويهي علّق مفكرة بخط يده على كتاب المدعدان ، الذي كان محفوظاً في مار شليطا مقبس ونقل الى خزانة الكرسي البطريركي ، في رتبة تبريك الماء يوم عيد الدنح « يختصر بها هذه الرتبة الطويلة جدًا . »[6]

واذا كان الدويهي لم يعمل بهذه الخطة حتى النهاية ، كما نظنّ ونرجح ،

---

١) مثل ذلك رتبة الاكليل في المخطوط الفاتيكاني ٣١٢ . فهي مزيج غريب من الطقس الماروني واليعقوبي واللاتيني .

٢) في رتبة العماد في المخطوط نفسه .

٣) في رتبة القنديل والمسحة الاخيرة في المخطوط الفاتيكاني عدد ٣١٠ ومخطوط بكركي .

٤) شرح التكريسات ، ثمّ ، ص ٤٨

٥) ثمّ . ص ٥٢

٦) المشرق ٦ [١٩٠٣] ٥١٦) . وقد راجعنا لائحة المخطوطات في الكرسي البطريركي فلم نجد فيها ذكرًا لهذا الكتاب . . .

بسبب ظروف زمانه الخاصة ، فلا نكبر انه وضع بهذه الكلمات القاعدة التي يحسن بل يجب اتباعها في تهذيب الطقس وتنظيمه في هذا الزمن الحاضر.

ولسائل ما كان اثر هذا الاصلاح الطقسي في الطائفة ؟ ان الدويهي اذاع عمله بمنشور على الطائفة وحتم برعايته وحده في خدمة الاسرار[1] . ويقيننا ان الاساقفة وافقوه على ذلك ولم تبدُ منهم معارضة . ولا نظن ان الخلاف الذي نشب بينه وبين بعضهم ، كان من اسبابه هذا الاصلاح الطقسي[2] . ذلك ان المطران يوسف مبارك ، الذي كان بدون ريب من جملة القائمين عليه بل زعيمهم ، يطرئ عمل الدويهي في الطقوس بهذا الكلام : « من حين جلس هذا الاب النبيل القديس على كرسي البطريركية ، لاجل زيادة غيرته الالهية ، فحص اكثر كتب طائفتنا ، وصححها وردّها الى نصّ الرسل الاطهار والآباء الابرار . »[3]

والكرسي الرسولي المقدس ، بعد ترجمة كتب الدويهي الى اللاتينية ، وافق عليها ، وعمد الى طبعها على نفقته[4] ، وفضّلها على الكتب التي اعدّها فيما بعد المطران يوسف اسطفان[5] .

وصرح آباء المجمع اللبناني ، المنعقد سنة ١٧٣٦ ، بوجوب اعتماد كتاب الرسامات « الذي هذبه منذ عهد قريب البطريرك اسطفان الطيب الذكر »[6] . وكذلك آباء المجمع المنعقد سنة ١٧٥٥ ، برئاسة البطريرك سمعان عواد ، امروا في البند الخامس ، ان « تحفظ في الطائفة كلها رتبة كنائية واحدة وهي التي جمعها المثلث الرحمة اسطفانوس البطريرك الانطاكي ، وهي الدارجة الآن في طائفتنا »[7] . على ان المجمع الذي عقبه السنة التالية في بقعاتا ، برئاسة البطريرك

١) الاب ديب ثمّ ، ص ٩١ و١١٩

٢) انظر في هذا الخلاف شبلي ثمّ ، ص ٦٥ و١٦٦

٣) في شبلي ثمّ ، ص ٢٢٠

٤) الاب ديب ثم ، ص ٩١ و١٢٢ وغيرها .

٥) الاب ديب ثم ، ص ٩٦ فما بعد و١١٩

٦) المجمع اللبناني ٢ : ١٤ ؛ ٥ . ترجمة نجم ص ٢٢٨

٧) المشرق (٧ [١٩٠٤] ٨٠٤-٨٠٥)

طوبيا الخازن ، قد رجع فيه الآباء عن ذلك بقولهم في البند الثاني عشر : « لتكن في الطائفة كلها رتبة كنائسية واحدة ، ولا يُستعمل الا كتاب القداس المطبوع ، وبقية الرتب الكنائسية التي نعتني الآن باصلاحها . »[1] .

يضطرنا الواقع الى القول ان عمل الدويهي ، الذي استنكف مجمع البطريرك طوبيا الخازن ذكره ، قد دُفن معه لسوء الحظ . ولم يطبع منه حتى اليوم جزء واحد ، اللهم الا بعض صلوات وتبريكات ، وضعت ملحقةً في آخر كتاب القداس المطبوع في رومية سنة ١٧١٥–١٧١٦ . قال الطابع في المقدمة : « وختمناه ببعض تبريكات مفيدة ، قد وجدناها في كتاب رتبتنا باللغة السريانية ، المجموع بعناية الاب النبيل والمعلم الجليل مار اسطفانوس الدويهي البطريرك الانطاكي . . . ونقلناها الى اللغة العربية ليطلع كل كاهن على معانيها . » وهذه التبريكات ادمجت كذلك باللغة العربية في كتاب الرتب الكهنوتية المطبوع في رومية سنة ١٧٥٢ . وما عدا ذلك ، وذلك قليلٌ وقليلٌ جدًّا ، لا شيء على ما نعلم . وما عداه مما طُبع لخدمة الاسرار خاصةً ، وهو المرعي الآن في الطائفة ، لا أثر فيه لعمل الدويهي ، بل هو ترجمة الرتب اللاتينية . وما عداه مما لم يطبع بعد ، كالشرطونية وغيرها ، لا يراعى فيه عمل الدويهي كما هو .

ان العقل ليقف حائرًا امام هذا الامر الواقع . ولا ندري الى اي الاسباب ننسبه ! أإلى جنوح قومنا الى الطقس اللاتيني ، لتأثرهم بالثقافة الغربية في رومية ؛ ام هناك اسباب اخرى محلية مكانية ، تافهة ، يؤلمنا ان نشيها ، ونستنكف ان نتبسط فيها ؟ والدليل اليها ما رأيناه من التناقض بين مجمع البطريرك سمعان عواد ، ابن الشمال ، الذي قضى باتباع الرتب التي جمعها الدويهي الشمالي ؛ ومجمع البطريرك طوبيا الخازن ، ابن كسروان ، الذي حتم بانتظار الرتب التي يُعنى باصلاحها . وآباء المجمعين هم هم . والبزهة بين المجمعين لا تبلغ السنة !!!

---

١) المشرق ج ، ص ٨١٠

المجمع اللبناني

لم يرد في المجمع اللبناني باب خاص في الطقس الماروني وما يحتاج اليه من اصلاح . فالآباء المجتمعون قد تشوا ، بالاجمال ، على آثار الدويهي في شأن المحافظة على طقسنا القديم والتمسك به وعدم نزحه بآخر . اما في الانصياع لرغبات الكرسي الرسولي في شأن الطقوس ، فتراهم قد تعدّوا حدود الدويهي ، فاوجبوا التقيّد بالصور اللاتينية في خدمة الاسرار . وقد يكون هذا ما حال دون قبولهم كتب الطقس التي كان الدويهي قد جمعها ، ودون اقرارهم اياها ، بالرغم من سنوح الفرصة . فوكلوا الى السيد البطريرك ومجمعه امر النظر في الكتب الطقسية وطبعها بحسب الاصول .

يضع الآباء هنا وهناك مبادئ غاية في وجوب التمسك بالطقس القديم . من ذلك قولهم ، عند الكلام عن الانعام المفاض على كهنة اللاتين بتلاوة ثلاثة قداديس في عيد الميلاد ، ان هذا الانعام لا يشمل كهنتنا : « لا لاننا نحرم عادة جرت عليها الكنيسة الرومانية المقدسة . . . ولكننا نريد المحافظة على طقسنا القديم . »[1] فنعم المبدأ ورعاية طقسنا القديم ، وحبذا بالحري التشبث عليه .

ويؤكد الآباء هذا المبدأ ويعزّزونه بكلامهم في المعاد حيث يقولون : « يأمر هذا المجمع المقدس حتماً بان لا يُجرى في خدمة هذا السرّ الا على طقسياته المرعية في الكنيسة الشرقية ، مما رسمه آباؤنا وعهدوا به الينا »[2] . وفي محل آخر ، في جانب القداس يوم خميس الاسرار والسبت العظيم ، يوجبون رعاية عادة القداس الواحد ، لانطباقها على الطقس القديم[3] .

ولا ريب في ان الآباء كانوا يرغبون في اعادة الطقس سالماً من كل دخيل ، ويعملون على تجديد رونقه القديم ، بدليل ما يصرحون به ، فيما

١) المجمع اللبناني : ٣ : ١٣ و ١٧ في ترجمة نجم ، ص ٢٢٥
٢) المجمع اللبناني : ٣ : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤٠
٣) ثم ٣ : ١٣ : ١٧ في نجم ، ص ٢٢٧

يلامس الطقوس الشرقية ، كاثوليكية وغير كاثوليكية ، حيث يقولون ، في باب الاوخارستيا ومادتها : « يجب الاحتراز مما يختلف به عنا بعض طوائف المسيحيين ، القاطنين نحن فيما بينهم ، في الاصطلاحات والعادات الذميمة والاضاليل.»[1] وهذا موقفهم تجاه الطقس اللاتيني نفسه، على ما رأيت ، ليس على سبيل تحريمه ونبذه ، ولكن محافظة على طقسنا القديم.

على انه كان لا مناص للآباء من قبول بعض طقوس رومانية ، كان الاحبار الاعظمون في براآتهم ، والقصاد الرسوليون في المجامع التي عقدت بحضرتهم ، قد عملوا على ادخالها في الكنيسة المارونية . وخصوصاً ان السلطة الرومانية ، التي وضعت رسوم المجمع اللبناني وقوانينه ، بواسطة قاصدها السيد يوسف السمعاني ، كانت لا تزال متمسكة بها فجرى الآباء في قبولها على آثار من سلفوا.

من ذلك ، في ايلاء سرّ التثبيت ، يحكم الآباء : « موافقةً للطقس اللاتيني ، ألا يخدم سرّ التثبيت الا الاسقف »[2] ؛ « ورغبةً في الجري قدر المستطاع على طقس الكنيسة الرومانية ، يأمر المجمع بان يقتصر في دهن طالب التثبيت في جبهته لا غير ، ويسمح في دهن طالب العماد في صدره وبين كتفيه فقط ، خصوصاً اذا كان بالغاً ، مع العدول عن المسحات التي كانت تجري سابقاً في الفم والاذنين والقدمين واليدين وفي عامة البدن » ، ان في المعمودية وان في التثبيت[3]. وهو يرسم كذلك ان يفصل التثبيت عن المعمودية، ولا يعجل منحه للاطفال قبل اتمامهم السنة السادسة[4].

ومنه في سر الزواج، يأمر المجمع الاساقفة والكهنة « ان يجروا بالتدقيق على عادة الكنيسة الرومانية المقدسة في عدّ الموانع ورعايتها »[5] ، ولا يجوز

---

١) ثم ٢ : ١٢ : ٧ اوله في نجم ، ص ١٦٥
٢) ثم ٢ : ١٢ : ١٥ في نجم ، ص ٤٨
٣) ثم ٢ : ٤٠٢ في نجم ، ص ٥٤
٤) ثم ٢ : ٨:٢ في نجم ، ص ٥٧
٥) ثم ٢ : ١١ :٧ في نجم ، ص ١١٨

« الزواج الثاني ولا الثالث ... عملاً بما للكنيسة الرومانية المقدسة ... من العادة والتعليم . » [1]

ومنه في سرّ الاوخارستيا ، في مناولة المؤمنين تحت الشكل الواحد او الشكلين ، « يأمر المجمع ويحتم حتماً باتباع رسوم الكنيسة الرومانية المقدسة » [2] . ويحكم بالاحتفال بعيد جسد الرب ، « ارتياحاً الى العمل بمنشور البابا اوربانوس الرابع » [3] . ويحفظ اقامة رسم الكاس او القداس السابق تقديسه ، ليوم الجمعة من سبْت الآلام فقط ، « وفقاً لما هو جارٍ في الكنيسة الرومانية المقدسة . » [4]

وهذا الامر الاخير لم يوجبه الاحبار الاعظمون ، لكن « الاقدمين من آبائنا » قد عملوه [5] . وما عمله المتقدمون من آبائنا في جانب رسم الكاس ، عمله آباء المجمع في جانب أمور أخرى . من ذلك انهم ، بالرغم من معرفتهم بوجود صورة طلبية للحلّ من الخطايا في كتبنا الطقسية ، فمع ذلك يأمرون الكهنة جميعاً « ان لا يستعملوا صورة الا هذه المعبر عنها بصيغة الانشاء : « انا أحلّك الخ » [6] . وكذلك عند كلامهم عن مسحة المرضى ، فانهم يفضلون بجلاء « الجري على عادة الكنيسة الرومانية المقدسة » ، وان كانوا لا يحرّمون الصورة الشرقية [7] ؛ ويعلنون للجميع « انه لا يلزم في اتمام هذا السرّ ضرورةً سوى حضور كاهن واحد » [8] . ثم انهم يضعون ازاء الصورة الشرقية في ايلاء التثبيت ، الصورة اللاتينية . تاركين الخيار في استعمال احداهما [9] . كما انهم اباحوا العماد ، اما بالغمس بموجب الطقس القديم ، واما بالسكب بحسب العادة

١) ثم ٢ : ١١ : ٢١ اخره . في نجم ، ص ١٥٢ و١٥٣
٢) ثم ٢ : ١٢ : ٢١ في نجم ، ص ١٩٩
٣) ثم ٢ : ١٢ : ٢٦ في نجم ، ص ٢٠٥
٤) ثم ٢ : ١٢ : ١٧ اخره . في نجم ، ص ٢٢٧
٥) ثم ٢ : ١٢ : ١٧ اخره . في نجم ، ص ٢٢٧
٦) ثم ٢ : ٤ : ٢ في نجم ، ص ٦٢
٧) ثم ٢ : ٨ : ٥ في نجم ، ص ١٠١
٨) ثم ٢ : ٨ : ٨ في نجم ، ص ١٠٢
٩) ثم ٢ : ٢ : ٥ في نجم ، ص ٥٤

الرومانية [1].

على ان من حسنات المجمع أنه سمح للكهنة ، عند الضرورة القصوى ، « ان يباركوا زيت المرضى في خدمة سر المسحة الاخيرة . . . بموجب العادة القديمة في طقسنا السرياني » [2] ؛ واباح للكهنة ، « وان تحتم عليهم استعمال الملابس الكهنوتية على طريقة اللاتين . . . ان يستعملوا بعض اشياء مما يشعر بطقسنا القديم . » [3]

هذا في شأن الطقس اللاتيني ، ولم يذكر المجمع شيئاً ، ولا من قبيل التلميح ، عن العلاقة بين الطقسين الماروني واليعقوبي . ولا بدع ، فقد رأيت فيما مرّ ان السمعاني وافق من سلفه من علماء الموارنة على ان للطائفتين طقساً واحداً وكتباً واحدة . فلم يخطر اذاً بباله ، ولا ببال الآباء المجتمعين بحضرته ، ان للموارنة طقساً خاصاً مارونياً ، مستقلاً عن طقس اليعاقبة وسائر السريان ، يجب توخيه ورعايته ، سليماً من كل خليط ومزيج ودخيل ، لاتينياً كان او يعقوبياً .

نلخص من ذلك ومثله ان آباء المجمع لم يشاؤوا البتّ النهائي في جملة امور طقسية ، ولا في مجمل الطقس ومجموعه . اما اصعوبة الامر ، بسبب ان العادات القديمة لا يسهل اقتلاعها او تحويرها ، وان الكتب الطقسية ، الجاري العمل بموجبها ، كانت تساعد طبعاً على ابقاء القديم على قدمه ؛ واما لتعذر القيام بهذا الاصلاح الطقسي على واضعي المجمع والقائمين به ، كما يتضح لمن يدقق في درس رسومه وقوانينه .

ولهذا نراهم ، اذا اشاروا اشارة الى ما يمكن اعتماده في الحاضر ، يحتمون حتماً بما يجب توخيه في المستقبل في طبع الكتب الطقسية . فقد اوجب المجمع « على السيد البطريرك السامي الاحترام وعلى الاساقفة معاً ان يختاروا رجالاً اكفاء ، ينقدون الرتب البيعية ويضمونها كلها الى مجموع واحد ، اي كتاب

١) ثم ٢ : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤١
٢) ثم ٢ : ٢ : ٨ في نجم ، ص ٩٩
٣) ثم ٢ : ١٢ : ٨ في نجم ، ص ٢١٢

القداس وكتاب الجبريات وكتاب الفرض الالهي ... وما اشبه ذلك فيثبتها السيد البطريرك والاساقفة ، فتُنشر مطبوعة وتُوزَّع على الكنائس والاديار والابرشيات »[1] . وقد اولوا السيد البطريرك في سبيل ذلك سلطة « الاستئثار بالولاية على الطقوس البيعية في بطريركيته ، بحيث يسوغ له ان ينقص ... ويهذّب ، ويدخل فرضاً جديداً او ينسخ قديماً ... حتى ان له ان يزيد او ينقص في الطقس ، ولكن على شرط ان يبقى الجوهر سالماً ، وان يتمّ ذلك براي الاساقفة واهل العلم . »[2]

وما ذكروه هنا اجمالاً اعادوه وكرّروه لدن تكلموا عن كل كتاب بمفرده في بابه . فاوجبوا على السيد البطريرك «ان يعنى، وفاء بواجباته الرعائية، بتعاهد كتابي الطقسيات والجبريات ، وتثبيتهما وطبعهما وتوزيعهما ، فيجري الكهنة والاساقفة جميعاً على الطريقة الواحدة نفسها في خدمة الاسرار . »[3] وقد جاء في محلات أُخرى ، ذكر كتاب الطقوس المثبت[4] ، والمعزوم على وشك طبعه[5] ؛ « وكتاب القداس الذي يكون السيد البطريرك السامي الاحترام قد وقف عليه واثبته ... حتى اذا طُبع ... ينشر في الخورنيات »[6] ؛ « وكتاب الجبريّات اي الشرطونية ، على ان يعتمد الكتاب الذي هذّبه منذ عهد قريب البطريرك اسطفان ... والمنتظر نشره بالطبع عما قليل»[7] ؛ «وكتاب الاقسام الذي يجب على السيد البطريرك ان يتصفحه ويحرّره ويثبته فيضاف الى كتاب الطقوس »[8] ؛ وكتاب السنكسار الذي يتحتم نقده « وحذف الاقاصيص المصنوعة والاساطير الملفقة منه ، والاقتصار فيه على تراجم القديسين

١) ثم ١ : ٢ : ٥ في نجم ، ص ٢٢
٢) ثم ٣ : ٦ : ٢ بند ٢٢ . في نجم ، ص ٤٢٥
٣) ثم ٢ : ١ : ٢ اخره . في نجم ، ص ٢٠٩
٤) ثم ٢ : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤٠
٥) ثم ٢ : ١٥ : ٢ في نجم ، ص ٤٩
٦) ثم ٢ : ١٢ : ٥ في نجم ، ص ٢٠٩
٧) ثم ٢ : ١٤ : ٥ اخره . في نجم ، ص ٢٢٨
٨) ثم ٣ : ٦ : ٢ اخره . في نجم ، ص ٢٢٠

المحققين وسيرهم المثبتة. »[1]

فالمجمع، وان كان قد حتم ببعض أمور فيما يلامس علاقتنا بالطقس اللاتيني، لم يقم باعباء الاصلاح الطقسي، على ما ترى، ولكنه ترك هذا الامر للسيد البطريرك، واولاه سلطة واسعة جدًا فيه، مشترطاً عليه ان يتم عمله « برأي الاساقفة واهل العلم ».

وكنا نودّ لو تمّ هذا العمل، كله او جله على الاقل، وقد مضى على المجمع اللبناني المقدس قرنان كاملان. فالاصلاح الطقسي الذي اوجبه المجمع اللبناني لم يُنفّذ، على شدة الاضطرار اليه، في كتاب واحد من الكتب الطقسية المذكورة. فمنها ما لم يزل مخطوطاً، كالشرطونية والسنكسار والاقسام وبعض اجزاء الفرض الالهي والكتاب المقدس. ومنها ما طُبع، ولكن على غير ما رسمه المجمع من خطط واوحى به من روح، ككتاب الطقوس بجزئيه: خدمة الاسرار والمعمدان. ومنها ما هو المطبوع قبل انعقاد المجمع، ما أُعيد طبعه على علّاته، مثل كتاب القداس وما اليه، وبعض اجزاء الفرض الالهي والجناز.

الشواذ الطقسية

لم يكتب الطقس الماروني القديم ما اصابه من طوارئ الحدثان، وبمعاقبة السريان، وتلامذة الرومان، فناه الله بما يمكن تسميته بالشواذ الطقسية.

من المعروف ان من جملة ما التأم لاجله المجمع اللبناني المقدس، الاهتمام بحالة الطقس الماروني في حلب، وخاصة عود الموارنة في هذه المدينة الى استعمال اللغة السريانية في الطقوس. وقد ذكر ذلك الاب فروماج اليسوعي في رسالته عن المجمع الى رئيسه العام قائلًا: « ان موارنة حلب ... عدلوا عن الترتيل في الكنائس الا بالعربية. ونسخوا العادة القديمة ان يتلى الفرض الالهي وسائر الصلوات بالسريانية. »[2]

---

١) ثمّ ١٢:٥:١ في نجم، ص ٢٢

٢) *Lettres édifiantes*, éd. Paris, 1870. II, p. 201 sq. وكذلك في مجموعة

ومما يذكره المؤرخون ان اللغة العربية قد احتلت الكنائس المارونية في حلب ، « حتى شاع عن المطران جرمانوس انه ابطل استعمال اللغة السريانية في كنيسته بالكلية »[1] . وهذا المطران جرمانوس هو العلامة الشهير جرمانوس فرحات مطران حلب (١٧٢٥–١٧٣٢) . واليه انفذ البطريرك يعقوب عواد والاساقفة ورقة حرم سنة ١٧٢٨ لانه تعدّى حقوقه الطقسية فكرّس الميرون[2].

ومن الثابت ان المطران عبد الله قرألي ، احد معاصري فرحات ووطنيه واخوته في الرهبانية والاسقفية ، واحد آباء المجمع اللبناني المقدس ، قد ألف بالعربية ما تدعوه « الافراميات » . فاخذت تنتشر في الطائفة مستعملةً في القداس الالهي .

فوقف المجمع اللبناني المقدس في وجه هذا التيار الحلبي العربي . ووضع الحدود في كيفية استعمال اللغة العربية في الطقوس[3] . وبعد انفضاض المجمع بايام ، افاد الاب فروماج الموما اليه ، ان الحلبيين ، بعد المجمع اللبناني ، ابطلوا الترتيل بالعربية في كنائسهم ، وعادوا الى استعمال السريانية ، بحسب العادة القديمة[4] .

وكذلك مجمع البطريرك سمعان عواد سنة ١٧٥٥ ، ومجمع خلفه البطريرك طوبيا الخازن سنة ١٧٥٦ ، « اذا فاهتنا » بالقطع والمزمورات التي رتبها المرحوم جرمانوس مطران حلب على الاوزان الموسيقية » ، وحصرا استعمالها « في القداس الاحتفالي للسيد البطريرك والمطارنة ورؤساء الرهبان . »[5]

لكن هذه التدابير والاحتياطات لم تحل دون استعمال اللغة العربية في الطقوس . ولو وقف الامر عند هذا الحدّ لهان . فان البعض قد اخذوا ، في

المجامع الحديثة المطبوعة في فريبورج سنة ١٨٧٦ والمعروفة باسم *Collectio Lacensis* في ذيل المجمع اللبناني ، عمود ٤٨٦ .

١) تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية . للاب يلبل . مجلد اول . مصر ١٩٣٦ ، ص ٦٨ ؛ من رسالة نائب الرهبانية العام الى رئيسه العام .

٢) ثمّ ، ص ١٦٨ و١٦١

٣) المجمع اللبناني ٢ : ١٢ : ١١ في نجم ، ص ٢١٤

٤) ذيل المجمع اللبناني في المجموعة الآنفة الذكر . عمود ٤٨٨

٥) المشرق (٧ [١٩٠٤] ٨٠٤ و٨١٠)

بعد ، يؤلفون ، في حلب ولبنان ، عبادات تقوية باللغة العربية رأساً ، وبدأوا يقيمون هذه العبادات في الكنائس ، اسوة بالرتب والخدم الطقسية القديمة ، كرياح الميلاد وزياح القربان ، وزياحات الايقونات المختلفة ، وما اشبه ذلك ؛ فضلاً عن تأليف افراميات جديدة وطلبات عربية يُختتم بها الفرض الالهي عشية الاعياد الكبيرة.

الكتب المطبوعة

لسنا نتوخى الكلام هنا في كل كتاب طقسي بالتفصيل . وانما غايتنا ان نلقي نظرة عامة على الكتب الطقسية المطبوعة[1] فنرى هل هي تمثل الطقس الماروني صحيحاً ، ام ممزوجاً بعناصر اجنبية : يعقوبية ، او رومانية ، او عربية حلبية ؛ وهل تمشى الطابعون ، بعد السدويهي والمجمع اللبناني ، على المبادئ والخطط التي وضعها هذا البطريرك العظيم الشأن ، وآباء المجمع المحترمون.

اول ما طبعت كتبنا الطقسية ، كان ذلك في رومية العظمى ، على ايدي اساقفة او كهنة مارونيين ، وتحت اشراف الكرسي الرسولي المقدس وتدبيره. فطبع في اواخر القرن السادس عشر كتاب الجناز المعروف بالنويسة سنة ١٥٨٥ ، فكتاب القداس الالهي سنة ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، يليه كتاب الشماس في خدمة القداس سنة ١٥٩٦ . وكان الطبع غاية في الاتقان والاحكام

الا انه لما كان التأثير اليعقوبي لم يزل قوياً بعد ، وكان الطابعون حديثي العهد بمثل هذه الامور ، فقد تسرب الى كتاب القداس اجزاء كثيرة وهامة من الطقس اليعقوبي ، بل نوافير كاملة ، حافلة باسماء ائمة اليعاقبة . فجاء الكتاب مزيجاً من طقسنا القديم ومن طقسهم . وجاورت نوافيرهم ، بل تقدمت في الترتيب نافورتنا القديمة المنسوبة الى الرسل والمبدوءة بلفظة هذه ، حتى يصح ، في رأينا الضعيف ، نسبة هذا الكتاب الى اليعاقبة اكثر منها الى الموارنة . وفوق ذلك قد أُبدل في النافورة الكلام الجوهري ، اي كلام التقديس ، من

---

١) ذكر تاريخ طبع الكتب الطقسية عند الموارنة بكل تفصيل حضرة الاب ديب في مؤلفه المذكور سابقاً : *Etude sur la Liturgie Maronite.* Paris, 1919.

مثله في النافورة الرومانية.

ولما وصل هذا الكتاب الى الطائفة ، احتجّ البطريرك سركيس الرزي على وضعه وطبعه بهذه الصورة ، وخصوصاً على ابدال كلام التقديس ، وحرم استعماله في الطائفة ، ثم اذن به بعدئذٍ نزولاً عند الحاح الكرسي الرسولي المقدس ، بواسطة قاصده الاب دنديني . وقد لاحظت بدون ريب ان المجمع اللبناني لا يقرُّ هذا الكتاب ، ذلك لانه يوجب اتباع كتاب القداس « الذي يكون السيد البطريرك السامي الاحترام قد وقف عليه واثبته . »[1] وقد اعيد طبع الكتاب في رومية سنة ١٧١٦ ، بعد ان حذفوا منه لسوء الحظ نافورتنا القديمة الخاصة بنا ، او بالحري بعد ان حولوها الى نافورة لرسم الكاس ، فتأمل . وعلى هذا النحو اعيد طبعه اربع مرات في دير مار انطونيوس قزحيا بلبنان ، في السنوات ١٨١٦ ، ١٨٣٨ ، ١٨٥٥ ، ١٨٧٢ . ومرتين في بيروت سنة ١٨٨٨ و١٩٠٨ .

وفي القرن السابع عشر طُبعت كتب الفرض الالهي اكثرها : اي الشحيم الكبير سنة ١٦٢٤ ، والشحيمة المتوسطة المعروفة باليوسفية سنة ١٦٤٦ ، والفنقيط الشتوي سنة ١٦٥٦ ، والصيفي سنة ١٦٦٦ . ولم يتسنّ لنا درس هذه الكتب وفروضها درساً خاصاً بعد ، ولكن اذا ثبت انها لم يداخلها شيء من الطقس اللاتيني ، فلا ندري مبلغ اتصالها بالطقس اليعقوبي . وقد أُعيد طبع الكتاب الاول في بيروت سنة ١٨٩٠ ، والثاني في رومية سنة ١٧١٣ ، وفي لبنان ، اي في قزحيا وغيره ، مرارًا عديدة ، بدون ما تغيير .

وفي اوائل القرن الثامن عشر ، طُبعت الاناجيل في رومية سنة ١٧٠٣ ، موزعةً تراتٍ تُتلى في اقامة الطقوس . ثم سنة ١٧٣١ طبعت الشحيمة الصغيرة في رومية ، واعيد طبعها مرارًا عديدة في رومية حتى سنة ١٨٦٣ ، ثم في لبنان ، من سنة ١٨٧٦ فما بعد .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، بعد الدويهي وعقيب المجمع اللبناني ، حدث حادث جلل في تاريخ طقسنا ، لم يأبه محدثوه لعمل الدويهي ولم يكترثوا لمقررات المجمع اللبناني . فقد طبع في رومية العظمى ، سنة ١٧٥٢ ، « كتاب

١) المجمع اللبناني ٢ : ١٢ : ٥ في نجم ، ص ٢٠٩

الرتب الكهنوتية ، وهو يشتمل » في اوله « على خدمة الاسرار المقدسة وصلوات وتبريكات مختلفة » ؛ وفي آخره ، على « رتبة جنازات الموتى ودفنهم » . وقد نظمه احد الآباء اليسوعيين وهو من ابناء الطائفة ومن تلامذة المدرسة المارونية، على ما يذكر في المقدمة ؛ ولا شك عندنا في انه الاب بطرس مبارك . وهو كتاب جليل ؛ ينم عن سعة معارف الجامع ومن مقدرته في الطقوس ، ويتضمن كل ما يحتاج اليه الكاهن خادم الرعية للقيام بواجبات وظيفته ، وذلك بنظام جميل وترتيب دقيق .

على ان ما يؤسف له ان رتب خدمة الاسرار قد اخذت بالحرف من الطقس اللاتيني ؛ ما عدا بعض اجزاء رتبة الزواج ، فقد أخذت من كتب السريان اليعاقبة ؛ وما عدا الصلوات والتبريكات فمعظمها من مجموعة الدويهي . فيحق لنا القول اذاً ان واضع هذا الكتاب قد ادخل الطقس اللاتيني في الكنيسة المارونية بصورة تكاد تكون كاملة شاملة . ولم يكتف بوضعه الى جانب رتبنا القديمة ، بل ابدل ذلك الطقس اللاتيني من طقسنا القديم . ولم يترجمه إلى السريانية ، بل نقله رأساً الى العربية ، وبها ادرجه في كتابه ، على ما في ذلك من مخالفة للمجمع اللبناني المقدس .

وما يدعو الى الدهشة ان هذا العمل قد تمّ بعد المجمع اللبناني بقليل من الزمان ، وايّاً كان العاملون ، فلا شك في ان السمعاني الكبير ، واضع المجمع اللبناني ، وهو آنذاك في اوج عزه ومجده في رومية ، لا يُقرّر شيء بدونه فيما يلائم الكنائس الشرقية ، وبالحري الكنيسة المارونية ، لا شك في انه قد علم بهذا الكتاب ، وقد يكون له يدٌ في اتمامه . افهذا اذاً ما كان يشتهيه السمعاني من الاصلاح الطقسي ! امن المحافظة على القديم ، « على الطقسيات التي وضعها آباؤنا وعهدوا بها الينا » ، كما جاء في المجمع اللبناني !

اما رؤساء الطائفة ، اي بطريركها ومطارنتها ، فلا نخالهم علموا بهذا الكتاب قبل طبعه . ودليلنا على ذلك ان جامع الكتاب وضع في اوله رسالة الى « قدس السيد البطريرك الانطاكي . . وسائر مطارين واساقفة الملة المارونية » ، يشرح بها ما اتاه بكتابه ، ومقدماً اياه « خدمة نافعة وضرورية لجماعة

الاكليروس » . ثم يوجز منهم « ان يقتبلوا الكتاب . . . ويأمروا كلًا من كهنتهم بان يقتنيه ويعوّل عليه في لوازم دعوته » . وما كان اغناه عن كل ذلك، لو كان الكتاب مطبوعاً بعلم هؤلاء الرؤساء ، وبالحري بموافقتهم .

ولهذا السبب احدث كتاب الرتب الكهنوتية ضجة عظيمة في الطائفة، نسمع صداها في المجمعين المنعقدين سنة ١٧٥٥ و١٧٥٦[1] . فالآباء، وان لم يسموا هذا الكتاب تصريحاً ، فهم يقصدون ضمناً تحريمه ومنع استعماله في الطائفة ، حيث يقولون: « لا يستعمل في جناز الاموات الا النويسة المطبوعة . ولتحفظ في الطائفة كلها رتبة كنائسية واحدة ، وهي التي جمعها المثلث الرحمة اسطفانوس البطريرك الانطاكي ، وهي الدارجة الآن في طائفتنا . »[2] وبهذين الامرين شجب للجنازات ولرتب الاسرار المسطورة في الكتاب الجديد ؛ وكذلك حيث يقولون في المجمع اللاحق : « فلتكن في الطائفة كلها رتبة كنائسية واحدة . ولا يستعمل الا كتاب القداس المطبوع وبقية الرتب الكنائسية التي نعتني الآن باصلاحها . »[3]

هذا ما نقرأه . اما ما جرى في الواقع فكان بالعكس . فقد عمّ في الطائفة استعمال الرتب اللاتينية بواسطة هذا الكتاب ، وكان قد بدأ من قبل يتغلغل في نواحيها شيئاً فشيئاً بواسطة بعض المخطوطات ، ثم بواسطة الشحيمة المتوسطة ، المحتوية في ذيلها على بعض خدم الاسرار منقولةً عن الطقس اللاتيني .

ولا ادلّ على ذلك مما حدث فيما بعد ، في اوائل القرن التاسع عشر . فقد اعدّ المطران يوسف اسطفان ، مطران قورش ، كتاباً جديداً للرتب الكنسية ، يحتوي معاً على الرتب السنوية اي المعدعدان وعلى رتب خدمة الاسرار الالهية : جمع الاولى من الكتب الطقسية واضاف اليها بعض عبادات تقوية ، لا صفة طقسية لها ؛ واخذ الثانية من كتاب الرتب الكهنوتية السابق ذكره ، بدون ان يحدث او يجدد فيها شيئاً . فارسل البطريرك يوحنا الحلو هذه الرتب كلها

١) المشرق (٧ [١٩٠٤] ٨٠٤ و٨١٠)
٢) ثمّ ، مجمع سنة ١٧٥٥ ، القانون الخامس .
٣) ثمّ ، مجمع سنة ١٧٥٦ ، القانون الثاني عشر .

الى رومية . والحّ خلفه البطريرك يوسف الحبيشي بشأنها . فدُرست في الدواوين الرومانية ، بالمقابلة مع مجموعة الدويهي . فاثار درسها اعتراضات جمة . ولكن البطريرك عاد فارسل عريضة ، وقعها معه المطارنة . وبها يقبلون بالكتاب على علاته ، بعد قسمته الى جزئين ، ويرجون الاسراع في طبعه . فتمّ ذلك وطبع الجزء الاول منه اي المعدعدان سنة ١٨٣٦ ، وهو الذي اثار جلّ الاعتراضات ؛ وقد اعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٠٩ . وطبع الجزء الاخر ، اي رتب خدمة الاسرار ، سنة ١٨٤٠ ؛ وقد اعيد طبعه في بيروت سنة ١٨٩٧[1] .

وهذان الكتابان يجري استعمالهما لليوم في الطائفة . وقد رأينا ما فيهما من عبث برسوم المجمع اللبناني المقدس ومن مخالفة لعمل الدويهي . وقد ذكر شيئاً من ذلك العلامة الكردينال انجلو ماي في تقريره بشأن هذا الكتاب بجزئيه : من ذلك «انه لم يتمّ برأي الاساقفة واهل العلم ، ولم تدرج السريانية فيه قبالة الكرشونية ، وهو يبعد جدًا عن مجموعة الدويهي ، التي كان مجمع نشر الايمان قد صدقها واثبتها ، وهو كله تقريباً بالعربية بعكس كتاب الدويهي ، فضلاً عن ان فيه امورًا عديدة مأخوذة من المؤلفات الروحية او التقوية العصرية الغربية»[2] .

اما في شأن ما اخذه الكتاب ، في جزئه الثاني ، من كتاب خدمة الاسرار الروماني ، فالعلامة ماي لا يعترض إلا على طريقة اخذه . ودونك كلامه : «وحيث يتبع (الكتاب الماروني) كتاب خدمة الاسرار الروماني ، فهو ليس مضبوطاً بالتمام ، لكنه بالحري محرف .»[3] وزاد الكرادلة المكلفون تصحيح كتب الكنيسة الشرقية ، فاظهروا مجلاء موافقتهم على دخول هذه العناصر اللاتينية في الطقس الماروني ، حيث قالوا : «لا مانع من ان يتخذ من الكتاب الروماني تلك الاجزاء التي تعتبر ملائمة ، وخصوصاً فيما يلاحظ الاسرار او رتبة اخرى قديمة عامة ، على ان يتمّ ذلك بترجمة مضبوطة وبفطنة .»[4]

اطلنا الكلام في كتاب الرتب الكهنوتية ووليده كتاب المطران يوسف

١) راجع كل ذلك في كتاب الاب ديب المذكور سابقاً ، ص ٩٤ فما بعد .
٢) ذكر ذلك الاب ديب ثمّ ، ص ٩٧
٣) الاب ديب ثمّ ، ص ٩٧ ٤) الاب ديب ثمّ ، ص ٩٨

اسطفان بجزئه الثاني ، لاننا نرى انه نفذ تلك الخطة التي بدأ بوضعها ابن القلاعي ، وجاراه فيها معظم تلاميذ رومية ، وهي الجري على عادات الكنيسة الرومانية وطقوسها ، فيما يلامس خدمة الاسرار المقدسة .

اما فروض الجناز في هذا الكتاب ، فقد سرت في الطائفة ، حتى اعاد طبعها المطران الدبس سنة ١٨٨٤ و١٨٩٨ ، فعرّل بالاجمال على النويسة القديمة ، المطبوعة في رومية سنة ١٥٨٥ . وقد ضمّ الدبس الى كتاب الجناز الافراميات والطلبات العربية التي اتينا على ذكرها بكلمة . وطبع كذلك سنة ١٨٨٤ ترجمة الحايات الاكثر استعمالاً . وكانت مطبعة قزحيا قد اصدرت سنة ١٨٤١ كتاب القراآت التي تتلى من الكتاب المقدس في الفرض الالهي ، ما عدا الاناجيل . فهذه كان قد سبق طبعها في رومية سنة ١٧٠٣ . بقي كتاب الرسائل البولسية التي تتلى في القداس الالهي ، فهذه طبعت مرارًا كثيرة في قزحيا وحلب وبيروت ؛ وكتاب الحاش ، فقد طبع في جونية سنة ١٩٠٢ . نكتفي بذكر هذه الكتب وطبعها ذكرًا بسيطاً . فهي لا شأن لها كبيرًا في ما نتوخاه من درسنا الحاضر .

الطقس الماروني القديم

ان الكتب الطقسية المطبوعة ، يمكن وضعها في ثلاثة ابواب : كتب خدمة القداس ، وقد قلنا انها اصبحت اقرب الى الطقس اليعقوبي منها الى الماروني ؛ وكتب خدمة الاسرار ، وهي لاتينية صرفة تقريباً ؛ وكتب الفرض الالهي ، ولم ندرسها درساً مستفيضاً فنعرف هل هي مارونية بحتة ، ام مزيج من الفروض المارونية واليعقوبية . اما قراآت الكتاب المقدس ، فلم تطبع كذلك طبعة قانونية ، بل طبع قسم منها بالعربية ، دون السريانية ، وهذا مخالف للاصول . واهم من ذلك ان العربية ليست في الغالب مترجمة بدقة وضبط عن السريانية المعروفة بالبسيطة . ثم ان من الكتب الطقسية ما لا يزال مخطوطاً ، على ما ذكرنا .

فمن الواجب ، والحالة هذه ، الرجوع الى الطقس القديم . وهذا امر يفرضه

البرُّ بالواجب تجاه السلف الكريم والائمة الاقدمين ؛ ويجبه احياء امجاد هذه الكنيسة المارونية ، وقد تحالفت العوامل المختلفة على طمسها ؛ ويدفع اليه ويشجع عليه ما قام مؤخراً ويقوم في الغرب من مثل هذه النهضة المباركة . فليس الّا ان تعقد النية على القيام بهذه المهمة ، مهما كلفت من مشاق ، وتستجمع القوى لتذليل ما يقوم في سبيل تحقيقها من عقبات ، وتتخذ الاحتياطات لاحباط ما قد يثور في وجهها من عراقيل .

ولا شك في ان للموارنة طقساً خاصاً بهم ، يستقلون به عمن سواهم . وهو اذا سهل على كل مطلع فصله عن الطقوس الغربية ، فلا يتعذر على الباحث البصير تمييزه من طقس السريان المجاورين .

وتوصلاً الى ذلك ، يجب اطراح كل المستجدات التي دخلت الطقس ، وسميناها الشواذّ الحلبية ، وما نُسج على منوالها في لبنان . فكل ما وضع في الاصل بالعربية ليس من الطقس الماروني في شيء .

ثم يجب الاحتراز شديداً من كل المخطوطات التي عقبت تأسيس المدرسة المارونية برومية سنة ١٥٨٤ ، ومن المطبوعات التي اخذت عنها . فهي جدّ متأثرة بالطقس اللاتيني ، بل بعضها واكثرها متحولة اليه ، حتى يصح اعتبارها كتباً طقسية لاتينية ، مكتوبة فقط باللغة السريانية او العربية .

واخيراً يجب الايقان أن المخطوطات التي كتبت من اوائل القرن الخامس عشر فما بعد ، وخصوصاً في جبة بشراي ، حيث كان النفوذ اليعقوبي سائداً ، ليست في الغالب سوى مخطوطات يعقوبية ، سواء أكتبت لاستعمال اليعاقبة ، ام دنست حسّاً للاستعمال في كنائس الموارنة . فلا تصح اذاً نسبتها الى الطقس الماروني . على ان ما كتب في تلك الحقبة ، حتى في الجبة ، قد يكون بعضه مارونياً اقله في بعض اجزائه ، فيمكن الاستفادة منه .

اما كتب الطقس الماروني القديم فعلينا ان نفتش عنها قبل هذه الازمنة ، وبعيداً عن هذه الامكنة . فكل كتاب خطّ في القرن الرابع عشر فما قبل ، وقام الدليل على نسبته الى الموارنة ؛ وكل كتاب خطّ في تلك الحقبة او بعدها في نواحي البترون وجبيل ، وخصوصاً في وادي ايليج ، حيث اقام بطاركتنا

حتى اوائل القرن الخامس عشر ، هو كتاب ماروني صحيح .

لا نكبر ان هذه الكتب نادرة جداً . على ان قسماً منها لا يزال محفوظاً في خزانة الكرسي البطريركي وفي سواها من خزائن الكتب في لبنان ؛ وقد يفضي التفتيش الى العثور فيها على غيره . وقسمٌ منها تحتوي عليه خزائن الكتب في رومية وباريس ولندن وغيرها في الغرب . واذا كنا لا نعرف كل هذه الكتب ، فلأنّ الانظار لم تتخذ حتى الآن هذا الاتجاه الذي اتخذناه . بل كان الكتبة والعلماء يكتفون بما يرددونه من ان الموارنة واليعاقبة ، وان اختلفوا في المعتقد ، فهم متفقون في العادات والطقوس .

على ان ما نعرفه حتى الآن من هذه الكتب ، على قلتها ، يمكننا من القول انها تبعد عن الكتب اليعقوبية ، ليس فقط في صلواتها ، بل كذلك في سياق هذه الصلوات وتنظيمها وترتيبها فيها . وهي على قلتها تشتمل على رتب طقسنا القديم ، او اقله على معظمها واهمها ، كالقداس الالهي وخدمة الاسرار والفروض . اما ماهية هذه الرتب ومكوناتها ومميزاتها ، والى اية طائفة طقسية تعود ، فتلك امور لا سبيل الآن الى التبسط فيها

وقد ادى البطريرك الدويهي ، على ما ذكرنا ، خدمة جلّى ، اذ ابقى لنا في مجموعته شواهد ناطقة بمحتويات هذه الكتب . لانه قد عول على الكتب المارونية حين عمد الى تهذيب الطقس وترتيبه . فاستند الى الكتب السابقة لزمانه « بثلاثماية سنة وازيد »، اي العائدة الى ما قبل القرن الخامس عشر . فساغ لنا ان نعتبر مجموعته كنسخة عن هذه الكتب القديمة ، اللهم الا بعض تحويرات ، اقتضاها واجب « الطوع لصاحب السلطان الاعلى » ، في الجري على بعض عادات وطقوس لاتينية ، او جاء بها الزمان من طقوس جيراننا وضيوفنا اليعاقبة ، او آثرها هو نفسه رغبة في تحسين الطقوس ، على ما ذكر ونقلنا عنه .

فاقتفاء لآثار هذا الرجل الماروني ، يجب ان نعمد الى هذه الكتب القديمة ، فنستخلص منها طقسنا الاصلي . وعملاً بمبدإه ، يجب ان « نقطف ما هو ضروري » لقيام الطقوس ، « وتحسين الرتبة على زي البلاد » ، بحسب مقتضيات الازمنة والامكنة ، ولكن على شرط ان لا « يصير تغيير في [الطقس] ولا في الرتبة . »